سلسلة أعلام الفكر العالمي

كيركجورد

تأليف: فريتيوف برانت ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

كيركجورد

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

بناية برج الكارلتون ـ ساقية الجنزير ـ ت ٨ ٧٩ ٠١
برقياً موكيالي بيروت ـ ص ب ١١/٥٤٦ بيروت

الطبعة الأولى
١٩٨١

هذه ترجمة كاملة لكتاب: سورين كيركجرد من تأليف
الكاتب الدينماركي فريتيوف برانت

Soren Kierkgaard

by

Brandt, F.

والمؤلف عضو بالأكاديمية الدينماركية للعلوم والآداب وقد
صدر الكتاب في كوبنهاجن عام ١٩٦٣ .

مولده وأسرته

ولد سورين كيركجرد في كوبنهاجن يوم ٥ أيار (مايو) ١٨١٣ وينحدر كل من أبيه وأمه من أسرة جوتية، وهي قبيلة جرمانية غزت القارة الأوروبية في القرن الخامس. وقد جاء أبوه من مزرعة معدمة هي عبارة عن أرض سبخة في قرية صغيرة في جوتلاند الغربية على بعد عشرة أميال من ربخكونبج. وقد عُهد إليه وهو غلام الاعتناء بالماشية في المرج حيث عانى من البرد والجوع ولكن عندما بلغ من العمر اثني عشر عاماً أرسل إلى كوبنهاجن ليعيش مع خال كان تاجراً غنياً. وهنا تلقى تعليماً وكوّن نفسه.

في الرابعة والعشرين من عمره شق طريقه بسرعة مذهلة

وتمكن من التقاعد من العمل في الأربعين، وأمضى بقية حياته كرجل غني لديه فراغ شديد. ولم يمت إلا بعد أن أصبح في الثانية والثمانين عام ١٨٣٨ ، وفي تلك السنة كان ابنه سورين قد أصبح في الخامسة والعشرين.

وقد جاءت أمه أيضاً من منطقة سبخة في جوتلاند وكان أبوها من صغار الملّاك وكانت الزوجة الثانية للأب كيركجرد وأم أولاده السبعة. وكانت قد دخلت المنزل في البداية كخادم لكنها تزوجت رب الدار قبل أن ينقضي عام على وفاة زوجته الأولى. وبينما ينوه سورين كيركجرد بين الفينة والفينة بأبيه باعتباره صاحب التأثير الأكبر على حياته، فإنه لا يكاد يذكر والدته على الإطلاق. وقد وصفها الآخرون بأنها أم شفوقة حانية، ويبدو أن الجانب الروحي في طبيعة سورين كيركجرد قد ورثه عنها. وماتت عام ١٨٣٤ وكان سورين في الحادية والعشرين من عمره.

ولقد كان سورين كيركجرد أصغر الأبناء السبعة للأسرة. وعندما ولد كان أبوه في السادسة والخمسين وكانت أمه في الخامسة والأربعين وكان يطلق على نفسه أنه ابن الشيخوخة. ولقد هيمنت على البيت النزعة الأبوية والإرادة الصارمة اللتان يتصف بهما أبوه. لقد كان رجلاً موهوباً ثقّف نفسه بنفسه وكان يجيد القراءة كما كان يشغل نفسه كثيراً بالمسائل الروحية. وكانت هيمنته الدينية من نوع اخوة هونهوتر. وكانت لديه نظرة كئيبة

للحياة وربى أطفاله بشكل صارم من المسيحية تؤكد بصفة خاصة على معاناة المسيح. وكان يعاني من نوبات متقطعة من الاكتئاب واليأس والشعور بالخطيئة والوسواس. وكان يشك بصفة خاصة في خلاص روحه.

وليس هناك شك في أن سورين كيركجرد قد ورث عن أبيه أعمق مكونات شخصيته والاكتئاب الذي كان ينتابه بين الحين والحين قد أثقل عليه، كما ورث عنه أيضاً قدرات التفكير البارزة، لقد ورث العقلية الجدلية النفاذة والخيال الانفعالي.
ولقد كتب كيركجرد في مؤلفه «وجهة نظر تأليفي» على شكل سيرة ذاتية:

«وأنا طفل تربيت على المسيحية بصرامة وشدة وإذا جاز لي أن أعبّر عن نفسي بإنسانية لقلت إنني تربيت على نحو جنوني: وحتى في طفولتي المبكرة قيدتني انطباعات حطت عليّ من سوداوية الرجل العجوز الذي كان هو نفسه محاصراً بها ـ لقد كنت طفلاً تربى ـ بجنون ـ كرجل عجوز سوداوي».

ولقد كتب في موضع آخر: «إنني أدين بكل شيء لوالدي منذ البداية. وعندما كان يرى ـ وهو الرجل السوداوي ـ نظرتي الحزينة كان يقول: «انظر، إنك تحب يسوع المسيح كما يجب».

ولقد كان المسيح الذي يعاني هو ما عرضه الأب وقدّمه لابنه. ولقد قال ابنه إنه منذ الصبى وإلى ما بعد ذلك قد تربى على

أن الحقيقة يجب أن يكابدها الإنسان ويجب التهكم منها والحط من شأنها. وهو يذكر بالمثل الوقار الذي كان يستشعره منذ الطفولة لأنه قبل أن يكابده بنفسه بفترة طويلة تعلم أن العالم تحكمه الأكاذيب والوضاعة والظلم. «حتى وأنا صغير كان يقال لي بوقار قدر الإمكان: إن (كل مخلوق) قد صفع المسيح (الذي كان في الواقع هو الحقيقة) وأن (الحشد) (الذين كانوا يمرون) قد صفعوه وقالوا: (عار عليك) ولقد احتفظت بهذا عميقاً في قلبي وشكلت هذه الفكرة حياتي».

وهكذا كان الأمر. لقد ظلت صورة المسيح التي غرسها أبوه في عقل الطفل معه طوال حياته باعتبارها التجربة المهيمنة. ولقد كتب كيركجرد في مواضع عديدة إن الانطباع السائد للمسيح الذي تكوّن في طفولته قد جعله تعساً إلى حد كبير. «لقد كانت المسألة برمتها مرتبطة، بالعلاقة مع أبي أكبر شخص أحببته ـ فماذا كان يعني هذا ؟ إنه يعني أنه كان مجرد الشخص الذي يجعل من المرء إنساناً تعساً ـ ولكن من خلال الحب. ولا يكمن خطأه في نقص الحب ولكن في خلطه لإنسان عجوز بطفل». ولكن إذا ما تحدثنا دينياً لا إنسانياً،كان شاكراً لأبيه على المدى الطويل «لقد تعلمت منه ما الذي تعنيه المحبة الأبوية. وهكذا أعطيت مفهوم الحب الأبوي الإلهي، الشيء الوحيد في الحياة الثابت الذي لا يتزعزع وهو النقطة الأرشميدية الحقة».

حياته والزلزال الأكبر

في عام ١٨٣٠، وكان سورين كيركجرد في السابعة عشرة، أنهى تعليمه الثانوي بتفوق وبدأ في التوّ يقرأ اللاهوت. ولا يُعرف إلا القليل عن سنواته الأولى كطالب، ولكن ابتداء من حوالي ١٨٣٤ تبدأ أولى مذكراته الشبابية التي حُفظت لنا. وهي تبين أنه كان يقرأ بتوسع في مجالات اللاهوت والفلسفة وعلم الجمال. وكان شغوفاً بصفة خاصة باللاهوت الألماني والفلسفة المثالية الألمانية والآداب الجمالية الرومانسية.

وكان من المتوقع على نحو طبيعي أن يجتاز امتحانه النهائي في اللاهوت عام ١٨٣٥، ولكن بدءاً من السنة الدراسية ١٨٣٤/١٨٣٥ كان في حالة من القلق والتشوش الذهني

العنيف. ولقد اضطر لفترة من الوقت أن ينقطع عن دراساته تماماً ويستريح في مصيف جيليليج الساحلي للعلاج خلال صيفي ١٨٣٤ و١٨٣٥، وهناك حاول أن يجلو أفكاره ولقد كتب في مذكراته من بين أشياء عديدة:

«إن ما أحتاج إليه حقاً هو أن أتطابق مع نفسي عما يجب عليَّ أن أفعل لا عمّا يجب عليَّ أن أعرف إلا إذا كانت المعرفة ستكون مقدمة للعمل. وما يهم هو فهم قدري وما يريده (مني) الله أن أفعله، أن ما يهم هو اكتشاف حقيقة تكون حقيقية (بالنسبة لي) وأن أجد (تلك الفكرة التي أعيش وأموت من أجلها)».

ومثل هذه الكلمات من طالب في الثانية والعشرين من عمره لهي أشبه باللحن الساري في حياته كلها. وإن معركة كيركجرد من أجل مفهوم فلسفي شخصي للحياة إنما تسود كتاباته كلها. وعندما أقيم نصب تذكاري في رأس جليجرج في مصيف جيليليج في عام ١٩٣٥ للاحتفال بمرور قرن على بزوغ كيركجرد الشاب، نقش على النصب تلك الكلمات المستمدة من نفس هذه المذكرات «ليست الحقيقة سوى أن تعيش من أجل فكرة». ونحن نفترض أنه حدث في خريف عام ١٨٣٥ هزة مخيفة عند كيركجرد الشاب حددها في يومياته بقوله إنها «الزلزال الأكبر». وقد عبّر عن نفسه عن هذا بكلمات غامضة دون أن

يحدد شيئاً على نحو دقيق. والفقرة الأساسية تجري على هذا النحو».

«لقد وقع آنذاك (الزلزال الأكبر) الهزة المخيفة التي أثرت فيّ على نحو فجائي بتفسير جديد لا يخطىء لكل ظاهرة. ثم بدأت الشك في أن سن والدي المتقدمة ليست نعمة إلهية. بل هي بالأحرى لعنة، إنّ القدرات العقلية البارزة لأسرتنا لا توجد إلا لتعذّب الآخرين، ثم شعرت بصمت الموت يتزايد فيّ عندما رأيت في والدي رجلاً تعساً قد يظل حياً بعدنا جميعاً، حجراً على كل آماله. لا بد أن خطيئة ما كانت معلقة على كل الأسرة، عقاباً من الله على هذه الأسرة، وهي يمكن أن تتلاشى وتتبخر بلمسة من يد الله القديرة فتزول كتجربة فاشلة. وأحياناً كنت أجد العزاء في أن على والدي واجباً باهظاً لتهدئتنا ببث عزاء الدين فينا جميعاً، حتى يظل لدينا عالم أفضل حتى لو فقدنا كل شيء في هذا العالم، حتى لو كان العقاب الذي يريده اليهود لأعدائهم يرّوعنا «أن تكون ذاكرتنا متأثرة تماماً وألاّ نُسْتكْشَف».

وليس هناك إلاّ شك واهن في أن (الزلزال الأكبر) و(القانون الذي لا يخطىء للتفسير) الذي كان هو العلة له، هو الذي لعب دوراً أساسياً كما لعب دوراً حاسماً في بعض المواضيع الحاسمة في بقية حياة كيركجرد خلال فترة الشباب. لقد شعر بأن

الموت يتعقّبه. وليس معروفاً القلق المخيف الذي انتابه من أي شيء يتكوّن وإن لم تصعب معرفة أرضية القانون الذي لا يخطئ، الخاص بالتفسير «إن الأسرة بكاملها يجب محوها».

وكما ذكرنا من قبل، كان هناك سبعة من الإخوة والأخوات. ولكن مع نهاية عام ١٨٣٤ لم يتبق إلا اثنان أحياء: سورين نفسه وأخوه بطرس الذي كان يكبره بثماني سنوات. أما أخوته، سورين ميخائيل (١٣ سنة) و وينلنز اندرياس (٢٤ سنة) واخواته كارين كيرستاين (٢٥ سنة) ونيكولين كريستاين (١٣ سنة) وبتريا سيفيرين (٣٤ سنة) فقد ماتوا جميعا. والثلاثة الأخيرون ماتوا ما بين ١٨٣٣ و١٨٣٤، كما ماتت امهم ايضا في عام ١٨٣٤ ولم يبق الا الأب العجوز وابناه. وبعد هذا اصبحت علاقات سورين كيركجرد بأخيه الوحيد علاقات مكبوحة كما كبحت ايضا علاقاته بأبيه بالمثل. ونتبين من هذه الكلمات: «إن القدرات العقلية البارزة لأسرتنا لم توجد الا لتقضي على كل فرد آخر». ولا شك ان كيركجرد قد تأمل في عدد الوفيات الغريب وجاءت البنية الحقيقية عنده دائما بنية دينية، فما الذي يعنيه الله بهذا؟ ثم وجد «القانون الذي لا يخطىء الخاص بالتفسير»: يجب الاطاحة بالأسرة كلها ولا بد ان هناك خطيئة ما تحلّق فوق الأسرة كلها.

ويمكن أن نتبين من خلال الكتابات الأخرى أن كيركجرد

كان يعتقد أيضاً على نحو شديد بأن أقصى سن سيصل إليه يجب أن يكون ٣٤ عاماً، وعندما بلغ هذا العمر في ٥ أيار (مايو) ١٨٤٧ كتب في يومياته: «عجيب أنني في الرابعة والثلاثين. إن هذا غير مفهوم بالمرّة بالنسبة لي، لقد كنت على يقين بأنني يجب أن أموت قبل هذا التاريخ أو معه حتى لقد اعتقدت حقاً أنّ تاريخ ميلادي لا بد أن هناك خطأً في تسجيله،وأنني على هذا سوف اموت وأنا في الرابعة والثلاثين». ولم يعط كيركجرد أي تعليل لهذا الرقم الغريب لأنه كان يحب أن يكون غامضاً. ولكن مما يمكن التنويه به أن الرقم ٣٣ لم يكن فحسب عمر الجيل من تلك الحقبة بل هو أيضاً عمر المسيح وربما كان يعتقد أنّ أياً من أخوته وأخواته لم يتجاوز الرابعة والثلاثين، وربما كان هذا أهم تبريراته. أما هو فقد عاش حتى الثانية والأربعين.

ولقد انشغل الباحثون عن حياة كيركجرد انشغالاً كبيراً بمسألة هذه الخطيئة التي يظن كيركجرد أنها تلقي بكاهلها على عاتق الأسرة كلها وتفسير السبب الذي من أجله توقع عقوبة عليها لمحوها بالمرة.

وهناك واقعتان تنكشفان وكلتاهما تخص حياة والد كيركجرد. لقد كتب كيركجرد في يومياته عام ١٨٤٦: «الشيء المرعب في هذا الرجل الذي كان صبياً صغيراً يرعى الغنم في

مراعي جوتلاند،ويعاني الكثير وهو في حالة جوع وعوز، أن وقف فوق تل يلعن الله. ولم يتمكن هذا الرجل أن ينسى هذا حتى عندما أصبح في الثانية والثمانين». وعندما وضع ناشر الوثائق المجهولة لسورين كيركجرد هذا الاستهلال أمام الأسقف كيركجرد وهو الأخ الأكبر لسورين عام ١٨٦٥ انفجر باكياً وهو يقول: «هذه هي قصة أبي ـ وقصتنا (نحن) أيضاً». أما الواقعة الأخرى فهي أن زوجة الأب الأولى توفيت في ٢٣ آذار (مارس) ١٧٧٦ وفي يوم ٢٦ نيسان (إبريل) ١٧٩٧ تزوج زوجته الثانية التي أنجبت ابنها الأول بعد خمسة أشهر فقط من الزواج،وحسب التفسير المسيحي يعد هذا انتهاكاً لأوامر الله.

وعلى أية حال فإنّ النقطة الرئيسية عن «الزلزال الأكبر» ليست هي ماهية هذه الخطيئة أو الخطايا بل اعتقاد كيركجرد النهائي في الإطاحة بالأسرة ومحوها من الوجود. وإلّا لن نتمكن من فهم سنوات شباب كيركجرد بعد ١٨٣٤ ـ ١٨٣٥. لقد شعرنا بأن الموت يصحبه وتوقع ألا يعيش بعد سن الرابعة والثلاثين. إن الموت قد يأتي في أية لحظة. والنتيجة أنه قد افتضح دينياً واقتفى مباهج الحياة بينما كانت هناك فسحة من الوقت. ولقد رمى بنفسه ـ وخاصة خلال عام ١٨٣٦ ـ في فترة مكثفة من الملذات. ومن الناحية العملية قطع علاقاته بوالده وانتقل من البيت وغرق في ديون كبيرة. كما أنه تعرّض لبعض الإنحرافات

الخلقية التي لم يسامح نفسه عليها إطلاقاً فيما بعد. ولا نعرف ماهية هذه الانحرافات. وكانت سنوات ١٨٣٦ ـ ١٨٣٧ أكثر سنوات الإضطراب في حياة كيركجرد الشبابية. لقد كانت سنوات إثارة صاخبة تتخللها كآبات عميقة. لقد اختلط برواد المقاهي واختلط «بجميع أنواع الناس». ولقد اعتبر هذه السنوات فيما بعد سنوات ضلال بعد أن سار في (طريق التوبة).

وعلى أية حال نجده يلوم المسيحية خلال ربيع عام ١٨٣٨، وفي أيار (مايو) من هذا العامْ انتابته نزعة لا دينية. وهناك استهلال في يومياته تاريخها ١٩ أيار (مايو) الساعة ١٠,٣٠ صباحاً يجري هكذا:

«هناك فرح (لا يوصف) يتوهج من خلالنا وهو فرح لا يمكن التعبير عنه بمثل ما لا يمكن التعبير عما انفجر به المسيح دون دافع ظاهر» (ابتهجوا، مرة أخرى أقول: ابتهجوا) ـ لا فرح بهذا الصدد أو ذاك، بل صيحة النفس من صميم القلب (باللسان والفم ومن أعماق القلب). (إنني أبتهج في فرحي ومن فرحي وفي فرحي ومع فرحي وإلى فرحي وعلى فرحي وبفرحي وبصحبة فرحي) ـ وهو حمل ثقيل يقطع فجأة ـ وإلى حد ما ـ أغنياتنا الأخرى» إنه فرح أشبه بتنفس الريح يهدّىء وينعش، عصفة من الريح التجارية التي تهب من السهول على المنازل الخالدة».

وفي هذه الفترة تصالح مع أهل بيته. وبعد أشهر قليلة مات الأب في آب (أغسطس) ١٨٣٨ على عكس كل التوقعات. وقد كتب كيركجرد في يومياته: «لقد مات والدي في الساعة الثانية ليلة الأربعاء. ولقد كنت أتمنى من قلبي أن يعيش بضع سنين أكثر وأنني أعد موته آخر تضحية قام بها من أجل محبته لي، ولأنه لم يمت (مني) بل (من أجلي) فإنني لا أزال أستحيل إلى شيء». وبعد أن نشر بحثاً قصيراً عن هانز أندرسون ككاتب روايات تحت عنوان له دلالة هو: «من أبحاث إنسان لا يزال حيا» ، أخذ على عاتقه أن يكفر عن الوعد الذي أعطاه لوالده. وفي تموز (يوليو) ١٨٤٠ اجتاز امتحاناته النهائية في اللاهوت وهكذا أنهى فترة طلبه التي دامت عشرة أعوام وهي فترة كانت حافلة بالتجارب الباطنية والخارجية.

الخطوبة

وبعد أن اجتاز سورين كيركجرد امتحانه قام برحلة في التو إلى جوتلاند الغربية حيث سايدنج مسقط رأس والده. وتبين مذكراته أن هذه الرحلة كانت نوعاً من الحج فنجد على سبيل المثال:

«إنني أجلس هنا هادئاً تماماً أعد الساعات إلى أن أرى سايدنج. إنني لا أستطيع على الإطلاق أن أتذكر أي تغيير في والدي، والآن ها أنا أرى المواضع التي رعى فيها أغنامه والمواضع التي شعرت عندها بالحنين وذلك استناداً لأوصافه. فلنفرض أنني وقعت فريسة المرض وكان علي أن أُدفن في فناء كنيسة سايدنج! فكرة غريبة. إن رغبته الأخيرة قد تحققت

(ضرورة أن يكمل سورين كيركجرد دراسته في اللاهوت) هل كل مصيري الأرضي كامن في ذلك ؟ لقد تحققت مشيئة الله ! إن المهمة على أية حال ليست مهمة بسيطة إذا ما نظرت إليها في ضوء ما أدين به له».

واضح مرة أخرى هنا أن كيركجرد شعر بأن مصيره مرتبط أيما ارتباط بمصير والده. وهناك ملاحظات عديدة من نفس النوع تظهر أن سورين كيركجرد ـ بالإضافة إلى ملاحظات عديدة أخرى ـ قد كشف عن مقال فريد للغاية لما يسميه علم النفس الحديث «التثبيت على الأب». فإذا أخذنا هذا في الاعتبار مع خلفية إيمان كيركجرد العميق بأنه سيموت قبل الرابعة والثلاثين من عمره فإننا نندهش أن نجده بعد أشهر عديدة في شهر أيلول (سبتمبر) ١٨٤٠، يتقدم لخطبة فتاة شابة للغاية هي ريجين أولسن الجميلة البالغة من العمر الثامنة عشرة وهي ابنة كاتب بوازرة الخزانة. ولقد وافقت بعد إلحاح من أبيها وأعقبت هذا سنة خطوبة مليئة بالعاطفة والتعذيب. فهل كان سورين كيركجرد واقعاً في حبها حقاً ؟ إن الدارسين لم يتمكنوا من الوصول إلى اتفاق حول هذه المسألة. ورأى أنه كان محباً بالقدر الذي تسمح به طبيعته المتمركزة حول الذات. ولقد كان هذا الحب دون شك حباً عقلياً، إنه شأن من شؤون الحب المتعلق بالخيال. لقد كان كيركجرد يحلم بها لعدة سنوات قبل الخطوبة ولقد بث أحلامه مرة

أو مرتين في مذكراته. وهكذا نجد في عام ١٨٣٩ الاستهلال التالي: «أواه يا (ريجينا) يا حاكمة قلبي، أيتها الخفية في أعماق أعماق قلبي، الخفية في أعظم أحلام حياتي، هناك، في المكان القصيّ البعيد بعد الجنة عن الجحيم - حيث الألوهية المجهولة!».

ويقول كيركجرد نفسه إنه في اليوم التالي للخطوبة تيقن أنه أخطأ. فتملكته الكآبة مع الشك والقلق بشأن ما إذا كان يستطيع أن يواصل الحياة وهو متزوج. وغالباً ما يشير كيركجرد بكلمات غامضة في يومياته إلى الأسباب التي تدعوه إلى فسخ الخطوبة. فلقد تحدث مراراً عن علاقته بأبيه، وعن مزاجه السوداوي، وعن حياته غير الواقعية، وعن الشوكة التي تدمي جانبه، وعن عجزه عن تحصيل المطلق، وعن الزواج الذي يتطلب الصراحة في وقت العرس. «ولكن إذا كان عليّ أن أكشف نفسي فإنه سيتوجب عليّ أن أشركها في أشياء مرعبة: علاقتي بأبي، سوادويته، الحلكة الأبدية المخيمة على معظم نظرتي، انغماسي في الشهوة والعربدة». والتأكيد الرئيسي يقع على أبيه دون شك والسوداوية والشعور بالخطيئة. «ان تمسك بهذه الصبية المحبوبة بين يديك وأن تجعل من الحياة غناء لها وأن تريها الفرح الغامر وهو أعظم سعادة لدى السوداوي، ثم تتمسك بالصوت المصيري: (يجب أن تتخلى عنها) هذا هو عقابك، يتجسد أكثر بمرأى كل

معاناتها وابتهالاتها ودموعها تلك التي لا تدرك أنها عقابك أنت».
ولقد ظل كيركجرد يعتقد طيلة حياته أن المسألة كانت عقاباً من وجهة النظر الدينية.

ويبدو أن عنصر المحبة كان ذا أهمية واهنة بالنسبة لكليهما. فلقد كان إلى حد كبير حباً روحياً من الطرفين، ولا بد أن هذا كان له عمقه المعقول في أحيان كثيرة. ولقد حفظت لنا مجموعة من رسائل كيركجرد لخطيبته ومنها يمكن أن نتبين - من ضمن أشياء عديدة أخرى - أن كيركجرد كان كيّساً ودائم التفكير في هذه الشابة،وكان يغمرها بالهدايا المزودة برسائل التي قد تظهر أنها رومانسية ومصطنعة لكنها تخفي خلفها شعوراً عميقاً. وكمثال صارخ يمكن أن ندرج رسالة تحية بالعام الجديد ١٨٤١ ومعه هدية:

«عزيزتي ريجين! لقد بعث لك الله بسنة جديدة حلوة، ابتسامات كثيرة ودموع قليلة! إنني أبعث لك مع هذه الرسالة منديلاً. واتمنى ان تضعيه تحت وسادتك. فاذا حدث واستيقظت فجأة منزعجة من حلم مؤلم ولا تملكين ساعتها أن تكفكفي دموعك إذن جففي دموعك بهذا القماش من الكتان. ثم فكري في أنني أنا الذي بعثت به إليك وأنني أنا نفسي الذي أود أن تكفي عن البكاء. ولكن عندما تكونين سعيدة وأنت في حالة سلام وتكونين غنية غنى الأرملة الفقيرة التي تتنازل عن كل ما لديها

وتكونين أغنى من العالم، استلقي برأسك على الوسادة نفسها وسوف يذكّرك قماش الكتان هذا بي بأنك قد جففت دموعي وأنك الوحيدة التي فعلت هذا تماماً كما أنك الوحيدة التي شاهدتها. وحينئذ عندما تتمنين لنفسك سوف تتمكنين بسهولة من رؤية صورتي في هذا القماش. لقد جففت فيرونيكا المقدسة عرق المسيح بقماش غال من الكتان ومكافأة لها انطبعت صورته في القماش وعندما طوته خمس طيات كانت لديها خمس محبات منه. وحتى تتمكني من أن تري صورتي في هذا القماش يجب أن تتصوريها بنفسك وأنا أعلم أن هذا في وسعك. أوه، ولكن لا تصوريني كشخص مضطرب وقلق، لا تصوريني كشخص لم تغمره نعمة السلام من جراء الأفكار والظلام، لا تصوريني كإنسان ركبه أسى سرى كروح قلقة تضرب في الآفاق، بل صوريني كإنسان شفوق ورقيق مليء بالأمل والثقة. وأود ألا يفارق هذا القماش وسادتك مهما تكن الظروف»

صديقك

اس. ك.

وبعد عديد من الصراعات والأزمات قرر كيركجرد في النهاية أن يفسخ الخطوبة في آب (أغسطس) ١٨٤١ فأعاد خاتم الخطوبة لها مع كلمة الوداع التالية:

«حتى لا تعقد جلسة للنظر فيما سيحدث عندما يحدث إذن

لنجعل الأمر يتم. فوق كل شيء إنسي ذلك الذي يكتب هذا الآن: سامحي إنساناً حتى لو كان قادراً على تحقيق فهو غير قادر على تحقيق السعادة لفتاة. وفي الشرق الأقصى يعني إرسال وتر من الحرير الموت للراسل، وهنا يعني إرسال خاتم الموت بالتأكيد لذلك الذي أرسله».

غير أن خطيبته ما كانت تسمح بأن تحرره من الخطوبة حتى هذه اللحظة. ولقد مر شهران اعتبرهما كيركجرد «فترة رعب» قبل أن يحدث الفسخ النهائي للخطوبة. وخلال هذه الفترة اختلق الكثير ليشوه صورته في عين خطيبته وحاول أن يجعلها تعتقد أنه شخص عاجز وأنه إنسان مفضوح ومخادع وذلك حتى يكرّهها في شخصه، لكنها ما كانت تصدق هذا إلا بصعوبة. ولقد تزوجت فيما بعد وجاء زواجها سعيداً لكنها ظلت طول حياتها تحمل ذكرى عطرة لكيركجرد. وكان لهذه الخطوبة التعسة تأثير بالغ على كيركجرد ككاتب وهذا ما سوف نتبيّنه فيما بعد.

التهكم

لم تكن سنة الخطوبة على أية حال سنة معاناة فقط، ففي هذه السنة كتب كيركجرد أطروحته للدكتوراه وموضوعها: (حول مفهوم التهكم بالإشارة إلى سقراط بصفة خاصة). ولقد تمكن كيركجرد من أن يمسك بناصية المسائل التجريدية وفي الوقت نفسه أمسك بناصية ظروف الحياة الملموسة العينية. ولا يتميز هذا الكتاب بحدة لهجته غير المعتادة فحسب بل يتميز أيضاً بشرارة الذكاء والألمعية. ولقد كان كيركجرد نفسه سيداً في فن التهكم.

لقد كان كيركجرد الشاب لا يزال في هذه الفترة يفسر شخصية سقراط وتقدير أهميته معتمداً على هيجل، فكيركجرد

يذهب كما ذهب هيجل إلى أن أهمية سقراط في تاريخ العالم ترجع إلى تأكيد الذاتية في مقابل النزعة الكلية. وبلغة معاصرة يمكن القول بتأكيد حق الفرد (الشخص) داخل المجتمع والدولة الذي كان مبرراً في ذلك الوقت حسبما يرى هيجل (وكيركجرد معه). لكن كيركجرد تمسك أكثر مما تمسك هيجل بأن سقراط لم تكن له وجهة نظر موضوعية على الإطلاق. فالتهكم السقراطي يشير إلى موقف سلبي تجاه الأخلاقيات والفكر في عصره. إن سقراط يمثل ما أسماه كيركجرد «السلب اللامتناهي والمطلق». إنه يمثل عنده باللغة الحديثة النزعة العدمية. وبعد أن توصل كيركجرد إلى وضوح كامل عن وجهة نظره الأساسية في الفلسفة صحح من أطروحته سواء بالنسبة لفهمه لطبيعة التهكم السقراطي وكذلك بصفة خاصة بالنسبة لتقييمه لسقراط. لقد أصبح يمثل بالنسبة لكيركجرد مثال «المفكر الوجودي»، لأنه يؤكد حقوق الشخص التي تمثل ـ على نحو كاف ـ محتوى موضوعياً.

ولم تكن الأطروحة قاصرة على التهكم السقراطي بل كانت تمتد أيضاً إلى تناول التهكم الرومانتي يتبدّى من الحركة الرومانتية الألمانية التي كانت سائدة وغطية في ذلك الوقت. (تايك، شليجل، سولجر وآخرون) ولقد وافق كيركجرد على هذا التهكم الرومانتي طالما أنه احتجاج على عالم الإنسان المتوسط حيث يتبدى الناس «كما لو كانوا حفائر فحسب في ظروف

اجتماعية محدودة». ولقد رسم كيركجرد بأسلوب مليء بالسخرية صورة معبرة عن عالم الإنسان المتوسط هذا:

«إن كل شيء كامل وتام في تفاؤل صيني إلهي لا يسمح بأي اشتياق معقول لأن يظل الانسان غير راض، لا يسمح بأي اشتياق معقول لرغبة معقولة لم تتحقق. إن المبادىء العظيمة للعادة هي موضوعات العبادة الورعة، كل شيء مطلق حتى المطلق نفسه، وممنوع على الإنسان التعدد، ويلبس الإنسان قبعة ذات حافة عالية. كل شيء له معنى. وكل إنسان ينظر إلى موضوعه بتقدير متباين، ما مقدار ما أنجزه، ومقدار الأهمية الكبرى التي تشكلها جهوده المبذولة بالنسبة له وبالنسبة للكل. وكل شيء يسير في طريقه على ما يرام حتى الخاطب الذي يزمع الزواج، لأنه يعرف يسير في طريق مشروع ويتخذ خطوة خطيرة جادة. وكل شيء بميقاته فأنت تقوم بالرحلات المبهجة الريفية في عيد ميلاد يوحنا المعمدان وأنت تندم يوم الصلاة الكبير، وأنت تقع في الحب عندما تصل إلى سن العشرين وأنت تتوجه إلى سريرك في العاشرة مساء. أنت تتزوج وأنت تعيش من أجل الحياة المنزلية ومكانتك في الدولة، ويصبح لك أطفال ومتاعب أسرية، وأنت تكون بكامل رجولتك، وتلحظك الأنظار في الأماكن الراقية لأريحتيك وأنت على وفاق مع الكاهن ومن خلال رأيه تنجز أعمالك الجميلة بصفة خاصة وهو يدبج خطبة عصماء

والتي تعرف أنه يحاول عبثاً أن يستخلصها من أعماق قلب مُسْتثار إنك صديق بالمعنى الحقيقي والمخلص للكلمة، إنك صديق حقيقي. وأنت تعلم العالم، وأنت تربي أطفالك على نفس الغرار، ولقد كنت متحمساً ذات مساء منذ أسبوع من ثناء الشاعر على جمال الخلق، ثم مرة أخرى تعيش كلياً من أجل أسرتك سنة بعد أخرى بيقين واحكام لا يتغير ولو لحظة. إن العالم في طفولته الثانية، ويجب أن يتجدد».

ويرى كيركجرد أن احتجاج الرومانتية ضد كل هذا له فوائده.

«إن نسمة باردة ونفساً منعشاً لهواء الصباح من الغابات البكر الخاصة بالعصور الوسطى أو من الأثير النقي لليونان تهب عبر الرومانسية، إنها ترسل نفساً بارداً حتى أعناق المتوسطين من البشر، لكن لا يزال عليها أن تطيح بالإعلاء الحيواني الذي لا يزال الإنسان يتنفسه. لقد كرت مئات السنين وقامت القلاع الضخمة واستيقظ سكانها وتنفسّت الغابة بخفة وغنت الطيور والأميرة الجميلة عادت تجذب الخطاب من حولها، وعادت الغابة تدوي بنفير الصيد وعبقت المروج وانفلت الشعر والأغنية من الطبيعة ولا أحد يعلم من أين تأتي وإلى أين تمضي».

لقد تجدد العالم على يد الرومانتية ولكن كما لاحظ الشاعر

هايني لقد تجدد العالم لدرجة أنه أصبح من جديد طفلاً صغيراً.

«إن سوء حظ الحركة الرومانتية هو أنها لا تلتقط الواقع. إن الشعر يوقظ ويبعث أشكال الحنين والإلهامات السرية والمشاعر المتحمسة، إن الطبيعة تستيقظ والأميرة الساحرة تستيقظ، والرجل الرومانتي يغرق في النوم. وهو يعيش كل هذا في حلم وبينما كل شيء من حوله في حالة نوم فإن كل شيء يستيقظ لكنه هو ينام. غير أن الأحلام لا تُغْني. إنه يستيقظ متعباً وضعيفاً مجرداً من القوة لكن يهيّىء نفسه للنوم ثانية ثم عليه بعد هذا أن ينتج الحالة الخاصة بالسير ونحن نيام بالوسائل المصطنعة. ولكن كلما زادت الحاجة للفن بعد المثال الذي تاق إليه الرومانتي.

إن الكتابة الرومانتية تتأرجح بين هذين القطبين. ومن جهة يوجد (الواقع كما هو) بكل نزعة الرجل المتوسط التعس، ومن جهة أخرى يوجد (الواقع المثالي) بكل أشكاله الوردية. وكل من هذين العاملين يحتاج إلى العلاقة بالآخر. وكلما أضفى الطابع الكاريكاتوري على الواقع إزدادت المثالية أنبعاثاً وكل ما هنالك أن مصدر ما ينبعث هنا لا ينبعث من أجل الحياة الخالدة. ولكن لما كان هذا الشعر يتأرجح بين قطبين متعارضين. فإنه يبين أن (الشعر الحق) (لا) يكمن في المعنى الأعمق. إن المثال الحق ليس شيئاً قائماً في ما وراء العالم، بل هو كامن خلفه باعتباره قوة

ضاغطة. إنه أمامنا طالما أنه الهدف الملهم ولكنه فينا وهذا هو حقيقته».

إن هذه الفقرات دالة تماماً على كيركجرد، فهو منذ شبابه حتى وفاته مليء دائماً بالتهكم والاحتقار للعالم السطحي عالم القناعات المعتادة لدى الناس العاديين المتوسطين وهو يؤكد جدارات الشعر. وهكذا كان هو رومانتياً تماماً لكنه يذهب إلى أن الشعر يجب أن يرسو على شاطىء الواقع،وإلى هذا الحد كان كيركجرد (واقعياً) أيضاً.

المؤلفات المجهولة المؤلف

وبعد أن أنهى كيركجرد أطروحته وفسخ خطوبته في تشرين أول (أكتوبر) ١٨٤١ اتجه إلى برلين التي كانت في ذلك الوقت مركز الفلسفة واللاهوت. وعلى الأرجح كان عزمه أن يتأهل من أجل كرسي الفلسفة في كوبنهاجن الذي ظل شاغراً منذ وفاة بول مارتن موللر الشاعر الفيلسوف في عام١٨٣٨ ،وفي جامعة برلين ألقى الفيلسوف العجوز فريدريك شلنج سلسلة من المحاضرات عن فلسفة (وضعية) جديدة موجهة ضد هيجل وقد حظيت باهتمام بالغ. وقد حضر كيركجرد هذه المحاضرات وغيرها وكتب في يومياته:

«إنني سعيد للغاية أن استمع إلى محاضرة شلنج الثانية،

إنها شيء لا يمكن أن يوصف ! الآن أستطيع أن أتنفس الصعداء وتستطيع الأفكار أن تتنفس الصعداء معي. عندما نطق بكلمة (الواقع) - بصدد العلاقة بين الفلسفة والواقع - حينئذ وثبت فورة الفكر داخلي بالفرح. وإنني أستطيع أن اتذكر كل كلمة نطق بها بعد تلك اللحظة. ربما من هنا يأتي الوضوح. إن هذه الكلمة الواحدة إنما تذكرني بكل معاناتي وكربي الفلسفي».

ومع هذا كان شلنج خيبة أمل بالنسبة له. وقد كتب فيما بعد ضمن رسالة : «إن شلنج يعلن دون انقطاع بفضفضة وتكثيف على السواء». وبدل أن يواصل كيركجرد دراساته بدأ يعمل في كتاب ضخم كان يشغل ذهنه منذ حين. وفي آذار (مارس) ١٨٤٢ رجع إلى وطنه مبكراً عما كان قد خطط لكي يكمل كتابه،وقد نشر ككتاب مجهول المؤلف في شباط (فبراير) ١٨٤٣ بعنوان: «أما. . . أو» وله عنوان فرعي: «شذرة حياة» وقد نشرت فكتور أرميتا. وهو في مجلدين الأول في ٤٧٠ صفحة والثاني في ٣٦٨ صفحة.

غير أن هذا الكتاب لم ينشر إلا بعد أن تولت كيركجرد حمى الكتابة فألف ونشر «الرجعي» وقد نشره قسطنطين قنسطينيوس (١٨٤٣) و«الخوف والرعدة» نشره جوهانز دي سيلنتيو (١٨٤٣) و«شذرات فلسفية» نشره جوهانز كليماكوس (١٨٤٤) و«مفهوم القلق» نشره فيجيليوس ها وفمينيسس (١٨٤٤) و«تصديرات»

نشره نيقولاوس نوتابيني (١٨٤٤) و«مراحل في طريق الحياة» نشره هيلاريوس بوكبنزر (١٨٤٥) و«خاتمة حاشية غير علمية» نشره جوهانز كليماكوس (١٨٤٦). ومن بين هذه المؤلفات يقع كتاب «المراحل» في ٣٩١ صفحة و«الحاشية» في ٤٨٤، وكل هذه الكتابات تشكل ما أسماه كيركجرد (المجهولة المؤلف) وكان قصده أن يصدر سلسلة من وجهات النظر المختلفة في الحياة والتي أسماها أيضاً «مراحل الحياة» لمؤلفين خياليين.

ومع الكتاب الأخير الذي كتبه عام ١٨٤٦ اعتبر كيركجرد نفسه أنه استنفد هذا الموضوع. وفي حاشية على هذا الكتاب اعترف بتأليفه للكتابات المجموعة المجهولة المؤلف. وفي الوقت نفسه شكر «العناية الإلهية التي رعت جهودي، رعتها دون توقف ليوم واحد طوال أربع سنوات ونصف سنة ووهبتني أكثر مما كنت أتوقع، إنه أكثر مما كنت أتوقع حتى لو أن ما أنجزته بدا للآخرين بلا معنى».

إن هذا الانجاز العقلي الفريد يبدو شيئاً لافتاً للنظر لأن سورين كيركجرد يبدو من الناحية الصحية ضعيفاً وواهناً. وكثيراً ما كان يتشكّى «من عدم التناسب بين نفسي وجسمي» أي بين العقل القوي قوة لا تصدق والجسم الواهن. ولقد كتب في رسالة إلى صديقه الوحيد اللاهوتي أميل بوسن من برلين عام ١٨٤٣:

«لو وصلت أمس، وأنا أعمل اليوم، أن العرق ينبض في جبهتي. إن ما ذكرته لك من قبل أشعر تقريباً بأنه تأكد أنني في طريقي لأن أمرض وهذا هو كل ما هناك. إن الله يعرف، حسناً إذن فليقع الأمر. ومن هذه اللحظة نفسها أن الأفكار المكتظة تعمل ثانية والقلم يزدهر في يدي».

وبعد أسبوع أو نحو ذلك كتب مرة أخرى:

«لقد أنجزت عملاً يعد هاماً بالنسبة لي، إنني عاكف على عمل جديد بكل سرعتي، وأن مكتبتي لا غنى عنها لي، وكذلك المطبعة. وإنني أبدأ الحكاية فأقول لقد كنت مريضاً والآن أنا على ما يرام حقاً، أي أن عقلي يمتلىء وربما يكون في هذا موت جسمي. وإنني لم أعمل إطلاقاً من قبل بتكثيف كما أفعل الآن. وكل صباح أقوم بنزهة قصيرة ثم أعود إلى المنزل وأقبع في حجرتي حتى الساعة الثالثة دون توقف وكنت لا أكاد أبصر، ثم أزحف ومعي عصاي إلى مطعم في الخارج لكنني واهن حتى إنني اعتقدت أنه لو صرخ مخلوق باسمي بصوت عال فسوف أقع ميتاً. وبعد هذا أرجع إلى المنزل وأبدأ من جديد. وخلال الأشهر القليلة الأخيرة تتدفق الأفكار عليّ: وهي أشبه بالأطفال الأصحاء السعيدة المرحة المباركة تولد بسهولة ومع هذا فهي تتوالد مع توالد شخصيتي. وإلا فإنني أكون ـ كما ذكرت ـ ضعيفاً وترتعد ساقاي وأشعر بآلام في ركبتي وهكذا».

وأحياناً ما كان كيركجرد يستشعر بخوف من قوى إنتاجه (الشيطانية) وكان يضطر إلى الحصول على عون من التفكير في الله. ولقد كتب في موضع ما:

«يقال أن الشاعر يثير ربّات الشعر لترسل إليه بالأفكار. وهذا لم يكن حالي على الإطلاق، إن فرديتي تهيب بي ألا أفهم حتى هذا، بل على العكس إنني بحاجة إلى عون الله كل يوم ليزودني بدرع يحميني من ثراء الأفكار. وفي الحقيقة إذا ما مُنح إنسان مثل هذه القدرة على الإنتاجية ومثل هذه الثروة الدقيقة الطائلة فإنه سيتعلم كيف يصلي. لقد كانت لدي في كل لحظة القدرة على تحقيق هذا العمل الفني ولا أزال أستطيع أن أفعل هذا: إنني أستطيع أن أجلس وأتدفق بالكتابة بشكل مستمر طيلة الليل والنهار ثم لليلة أخرى ولنهار آخر لأن هناك ثروة كافية. فإذا فعلت هذا فإنني سأموت. إنني لا أنجز إلا القليل ويكون هناك خطر على حياتي. ثم عندما أتعلم الطاعة أنجز عملي كأنه واجب صارم فأمسك بقلمي وأكتب كل حرف بعناية ثم أكون على ما يرام. ومرات عديدة للغاية كنت أجد في هذا بهجة أكثر عما في الفكر الذي أنتجه في علاقة خضوع لله».

وهو يقول في موضع آخر إن الأفكار كانت تتدفق عليه كالثمار المتساقطة في حديقة تصورها قصص الجنيات وكانت

الأفكار ثرّة وحارة وقلبية وأن التعبير عن أفكاره كان يبحث فيه الحاجة إلى تقديم الشكر ويهدّيء اشتياقه الحار: «لقد كان يخيل لي أنني أملك قلماً مجنحاً، أجل، وحتى لو كانت لدي عشرة أقلام فإنني لن أتمكن من ملاحقة الثروات المتدفقة» وهذه الأقوال وغيرها مفهومة ومبررة تماماً. فإذا استبعدنا نيتشه وخاصة عندما كتب مؤلفه «هكذا تكلم زرادشت» فإننا لن نجد مثالاً في تاريخ الفلسفة يشير إلى الفكر والخيال الملهمين أكثر من كيركجرد.

وتعد الكتابات المجهولة المؤلف أعظم وأقيم إنجاز لسورين كيركجرد، فهنا نجد الفلسفة والفن واللاهوت متحدة ليس لها مثيل من قبل. وتبدو هذه الأعمال وكأنها تدفق دائم للثروة من عقل لا ينفد. إنه عقل فريد ومنفعل يجد تعبيرات مميزة عديدة. وفي هذه الكتابات يبعث كيركجرد أقوى المشاعر والذكاء الكلي وأهدأ المشاعر ككل أو أدق تهكم. وإن تخيله إنما يتحرّك بالتأكيد من خلال غنائية صافية بمثل ما يتحرك عبر أحلك دهاليز العقل وأكثرها ابتعاثا لليأس. وكل عبارة تحمل الطابع الأسلوبي لشخصيته. إنه لا يشبه أي كاتب آخر، إن له لغته، إنها لغة كيركجرد.

ومع هذا فإن المؤلفات المجهولة ليست هي كل كتابات كيركجرد خلال السنوات الممتدة من ١٨٤٢ إلى ١٨٤٦ فبعد أن كتب «أما . . . أو» بفترة وجيزة نشر «مقالان جليان» وكان سيظهر

له بنفس الطريقة مقالان جليان أو ثلاثة أو أربعة أحياناً في كل مرة ينشر عملاً مجهولاً. وفي عام ١٨٤٥ نشرت هذه المقالات كمجموعة بعنوان «ثماني عشرة مقالة جلية». وهذه المقالات ـ على عكس المؤلفات المجهولة ـ تحمل اسم سورين كيركجرد وهي دائماً مهداة إلى والده على النحو التالي: «إلى الراحل ميخائيل بدرسن كيركجرد، العلم السابق في هذه المدينة، ثاي، تهدى هذه المقالات».

وكيركجرد بوضعه اسمه على هذه القطع الفكرية يريد أن ينقل إلينا أنه يأخذ على عاتقه المسؤولية الشخصية لمحتوياتها بما فيها من وجهة نظر مسيحية تجاه الحياة، على حين أنه ليس معنياً إلا بالأسلوب الأدبي للأفكار الواردة في المؤلفات المجهولة.

المراحل الكبرى الثلاث

إن كيركجرد يتخذ تفرقة مماثلة بين أنماط ثلاثة من وجهات النظر: الجمالية والأخلاقية والدينية. إن كيركجرد لا يفهم تعبير «فلسفة الحياة» مجرد أن يكون لدى الإنسان رأي عنها بل يفهم بها أيضاً أن الإنسان يعيشها ويحققها. ووجهات النظر الثلاث في الحياة هي طرق مختلفة ثلاثة للحياة، إنها مراحل مختلفة ثلاث بها يمكن أن تعاش الحياة ولهذا فإنه يحددها على أنها مراحل حياة أو «مجالات الوجود».

بالنسبة للجماليين تعد اللذة هي الهدف من الحياة. إنهم يعيشون من أجل اللحظة الراهنة ويبحثون عن المتعة الشديدة. وفي هذه المرحلة يجب أن يتسلحوا ضد كل شيء يكون إلزامياً

وضاغطاً. إن عليهم أن يطفوا فوق أكثر علاقات الحياة جدية وألا ينخرطوا فيها. فمثلاً، يجب أن يتسلحوا ضد وضع دائم في الحياة وضد الزواج. إن كل تكرار يبلّد الشعور ومن ثم يقوّض اللذة. ولهذا فإن الجمالي يبحث عن التغيير الدائم وكلما كانت نظرته لأحداث الحياة أكثر تعسفاً كان هذا للأفضل. إن الجمالي لا يلمس إلا سطح الحياة وفي محيط الحياة الهامشي هذا تكمن لذته. قد يكون هناك قدر معين من الوظائف المتباينة أجل، ولكن ليس عملاً حقيقياً، معارف سطحية حقاً نعم، ولكن لا صداقات، حباً سطحياً نعم ولكن محبة عميقة لا. قد تختلف اللذات التي يسعى إليها الجمالي مما هو خشن ومادي إلى ما هو مشذّب وروحاني. وهكذا هناك أنماط مختلفة من الناس الجماليين، لكن اللذة كهدف للحياة مسألة مشتركة بينهم جميعاً. والنمط الذي وضعه كيركجرد بشكل رائع هو نمط دون جوان ذي الثقافة العالية والنزعة الجمالية. فبالنسبة لهذا النوع من الأشخاص تكون أعلى الأشياء في الحياة هي المتعلقة باللذة الشبقية والجمالية والمرحة في أشكالها المشذّبة. وبجانب هذا النمط الذي يجسّده شخص يسمى جوهانز المغتصب، رسم كيركجرد خطوطاً عريضة لأنماط جمالية أخرى.

وبالنسبة للإنسان الأخلاقي يكون معنى الحياة هو العيش بمقتضى المسؤولية والواجب. ولنعبر عن المسألة بشكل آخر

فنقول: الحياة لا يكون لها معنى بالنسبة لهم إلا عندما يتقبلون المسؤولية والواجب. إن لديهم شعوراً بالرسالة في الحياة. لهذا فإن النمط الأخلاقي له «مهمته التي هي أشبه برسالة في الحياة» (الموقف في الحياة) ومكانته في المجتمع. وتجد علاقته بالمرأة تعبيراً عنها في الزواج بما يترتب عليه من التزامات. وهذا النمط لا يسعى إلى تجنب التكرار بل بالعكس، إنه (يريد) التكرار وهو يعتبر أن ما قد يُفقد من الجدّة بسبب التكرار يكتسب بالصميمية بنفس الطريقة التي يكتسب بها بالتكرار تماماً. وعلى حين أن الجمالي يعيش دائماً وهو ابن اللحظة يعيش الأخلاقي في الزمن بمعنى أن حياته لها استمرار تاريخي ويكمن العامل الحاسم في (اختياره) أن يعيش حياته تحت سيادة مقولتي الخير والشر ومقولات الأخلاق، على حين يظل الجمالي خارجها ولا يسمح لنفسه أن تسترشد إلا بالمقولات الجمالية مثل اللذة والضرر والجمال والقبح والمصلحة والعبء والاهتمام وعدم الاكتراث. وأكبر وصف تفصيلي يقدمه كيركجرد للمرحلة الأخلاقية وارد في تصويره للقاضي وهلم.

وبالنسبة للرجل المتدين نجد أن علاقته بالله هي أعمق شيء في حياته. وهذه الحياة الأرضية حياة الزمانية لا تنال أرضيتها الحقة وعمقها ما لم ترتبط بالله والحياة الخالدة. وما يهم هنا هو مباركة الفرد في الحياة الخالدة والأمل في الأبدية.

الإخلاص في العلاقة مع الله هي العامل الحاسم. والإيمان الحق هو الإيمان الحار. وعلى حين أن الجمالي يعيش في اللحظة، ورجل الأخلاق يعيش في الزمن، يعيش رجل الدين في هذه العلاقة الآملة مع الأبدية. إن وجهة النظر الانسانية الوحيدة وهي وجهة النظر الأخلاقية ليست كافية بالنسبة له. وأكبر ممثل للمرحلة الدينية عند كيركجرد هو شخصية جوهانز كليماكوس.

لقد أكد كيركجرد بشدة أن المراحل الثلاث مختلفة اختلافاً شاسعاً. إنها تخص طرقاً ثلاثة مختلفة تماماً للحياة لها جوانب مختلفة للغاية. ولا يمكن الإنتقال من مرحلة إلى أخرى إلا عن طريق (الوثبة) كنظرة جديدة للحياة عندما تختارها الشخصية بتمامها. إن رجل الجمال لا يمكن أن يصبح رجل الأخلاق بدون وثبة تغير من نظرته الكلية للحياة، ورجل الأخلاق لا يمكن أن يصبح رجلاً متديناً بدون وثبة. وهكذا بالرغم من أن المراحل متمايزة بشدة إلا أن كيركجرد يذكر «مرحلتين إنتقاليتين» بين المراحل الثلاث الرئيسية. وهاتان المرحلتان هما التهكمية والفكهة. إن المرحلة التهكمية هي المرحلة الإنتقالية من المرحلة الجمالية إلى المرحلة الأخلاقية. والمرحلة الفكهية هي المرحلة الإنتقالية من الحالة الأخلاقية إلى الحالة الدينية. وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن كيركجرد اعتبر المراحل الثلاث (أو الخمس) هي مراحل نمو في تطور الشخصية. وفي تلك الحالة ستكون هناك

النتيجة المترتبة التاليـة: هناك المـرحلة الجماليـة، والمرحلة التهكمية، والمرحلة الأخلاقية، والمـرحلة الفكهة والمـرحلة الدينية.

ولنحاول أن نبرز هذا بمثال تخيلي: شاب يجد مكانته في الحياة. ربما يبدأ كرجل جمالي. وهذا نمطي للشباب: إن هدف الحياة هو بكل بساطة الإبتهاج في الوجود. ويؤكد كيركجرد في بعض الفقرات أن الطفل هو «طفل جمالي». وهو دون إرادة منه يتبع رغبته ويبحث عن رغبته. وعاجلاً أو آجلاً سرعان ما ينتاب الشخص الذي يكرس حياته تماماً للذة الهم واليأس. فالشاب الصغير الخيالي يشب غير راض عن حياته ويتبين خواءها. وقد يحدث أن يظل في الدور الجمالي لبعض الوقت عندما يكون بين أصدقائه ومعارفه من أصحاب النزعة الجمالية الآخرين. ولكن في أعماق عقله تكون نظرته تجاه نزعته الجمالية تهكمية. وهكذا يجد نفسه في المرحلة الإنتقالية بين الجمالي والأخلاقي. ولنفترض أنه «يختار ما هو أخلاقي». إنه يجد الآن هدفاً ومعنى للحياة في أن يعيش كعضو في المجتمع، كرجل الواجب المسؤول عن أفعاله وفق معيار الخير والشر. والآن، أنه يجد هدف الحياة ومعناها في التطور الأخلاقي للشخصية وفي الحياة الاجتماعية والأسرية. ولكن هل هذا هو الهدف النهائي للحياة؟ ربما في يوم ما سيبدأ في الابتسام بخفة على الإنسان الأخلاقي المتحمس الذي يعتبر هذه

الحياة الزمانية وواجباتها ومسؤولياتها على أنها الحياة الوحيدة. ثم يصبح معتاداً على أسى الحياة. وهو يبدأ يشعر بأن الحياة الأخلاقية ربما يجب النظر إليها ضد أرضية من الأبدية في إطار حياة أخرى سوف تأتي. وهكذا يكتشف في نفسه في المرحلة الإنتقالية الفكهة التي تبحث عن قهر متاعب الحياة بالفكاهة. وهكذا كما أن المتهكم يتمسك بموقف تهكمي تجاه النزعة الجمالية التي كان يعتنقها حتى ذياك الوقت والتي لم ينفصل عنها بعد انفصالاً تاماً، فكذلك نجد أن المتهكم يتخذ موقفاً فكهاً تجاه النظرة الأخلاقية للحياة عندما يظن أنها ذروة الأمور. أنه إذن في طريقه إلى المرحلة الدينية التي لا تجد المعنى النهائي في الحياة إلا ضد أرضية من الأبدية. وهكذا فإن الفرد يتحرك عن طريق «الوثبات» عبر المراحل المدرجة من الجمالية إلى الدينية. وعلى أية حال، يقرر كيركجرد بوضوح أنه لا توجد ضرورة لمثل هذا التطور سواء من الناحية النفسية أو المنطقية. وإن بعض الناس يظلون جماليين طوال حياتهم وآخرون يظلون أخلاقيين وهكذا.

إن القارىء قد يجمع من هذا العرض الموجز ان مراحل كيركجرد الثلاث يمكن مقارنتها بشكل أو بآخر بالأبيقورية والرواقية والمسيحية. وكيركجرد ـ مثل باسكال ـ يستمد كلامه من وجهات النظر الثلاث هذه للحياة. وهو يقول أيضاً في «تفسير أولي وأخير» حيث يعترف بتأليفه للكتب المجهولة كلها، أن

المؤلفات لم تطرح أي اقتراح جديد وأي اكتشاف لم يسمع عنه من قبل وأنه لم تكن لديه نية لإنشاء (حزب) جديد أو (التقدم) بل كل ما هنالك أنه أراد أن «يقرأ من جديد الكتابات الأصلية للظروف الفردية للوجود الإنساني القديمة والمألوفة وقد انحدرت إلينا من آبائنا وإذا أمكن بمزيد من التكثيف». وهذا صحيح أساساً. ولكن يجب أن نضيف أن الكلمات متواضعة للغاية. ومن حالة كيركجرد ليست المسألة مجرد مزيد من القراءة النفاذة لما هو قديم ومتوارث بل التحليلات الأعمق بشكل لم يسبق إليها لما هو جمالي وكذلك ما هو أخلاقي وديني، وكذلك إضفاء طابع متماسك على ما تم تحليله كما جرى التعبير عنه لدى الأفراد الرائعين. ويمكننا أن نتبين مدى أصالة أعماله وعمقها إذا تأملنا في تصوره للمسيحية وكان هذا التصور مصدراً من المصادر الأساسية التي استلهمتها نزعة بارث المسيحية وإن تصوره (للتفكير الوجودي) يعد أساسياً بالنسبة (لوجودية) زماننا.

إمـا . . . أو

يعد كتاب «إما . . . أو» الذي كتبه عام ١٨٤٣ حجر الزاوية في بناء فلسفته عن مراحل الحياة. وقد يبدو للقارىء الحديث أن الكثير مما في الكتاب غريباً بل عفّى عليه الزمن. وليس هذا صادقاً فحسب فيما يتعلق بالفلسفة التأملية بل هو صادق ايضاً على الأرضية الاجتماعية للحياة، والعالم الاجتماعي الذي هو أساس الكتاب قد تغير في طابعه تغيراً كبيراً على الأقل بالنسبة لمكانة المرأة في البيت وفي المجتمع. ولكن بالرغم من هذه التغيرات فإن هذا العمل الخلاق لا يزال آسراً في روعته الفريدة ومعرفته العميقة بالحياة وفنه المميز وثرائه الانفعالي الكبير. وهو أقيم مؤلف نثري عن فلسفة الحياة في الحقبة المتأخرة من الحركة الرومانتية.

إن الكتاب ينقسم إلى جزئين. في الجزء الأول نجد شخصين جماليين يعبران عن أنفسهما. الأول ليس له اسم حقيقي بل يشار إليه بأنه الشخص الجمالي (أ) والشخص الثاني هو جوهانز المغتصب. وهما من النوع الجمالي لكن لهما طبيعتين ومزاجين مختلفين اختلافاً تاماً وكل منهما يمارس بطريقته وجهة نظره الجمالية في الحياة. وفي الجزء الثاني نجد نقداً يوجهه القاضي ولهلم ضد النظرة الجمالية للحياة. إنه صديق أكبر قليلاً للشابّ الجمالي (أ) وهو على علم بوجهات نظر الشخص الآخر. وهو يشرح في دراستين طويلتين على شكل رسالتين آراءه الأخلاقية، أو بالأخرى الأخلاقية الدينية في الحياة لصديقه الشاب وهو يسعى إلى أن يحوله عن نزعته الجمالية التي تعد في نظر القاضي مفضية إلى اليأس. وعنوان الكتاب جاء على لسان القاضي الذي يذهب إلى أن هناك اختياراً محدداً. (إما) ما هو جمالي (أو) ما هو أخلاقي. غير أن الكتاب ينتهي (بنذير) لم يكتبه القاضي بل كتبه صديق أكبر له وهو كاهن في جوتلاند. وهذا يدل بإيجاز شديد أنه لا تزال هناك نظرة ثالثة للحياة هي النظرة الدينية الخالصة، غير أن كيركجرد لا يتناول هذه النقطة هنا بل يتناولها في الكتب التالية.

إن الشخص الجمالي (أ) هو شاب رغم شبابه قد ضاق ذرعاً بالحياة، فالسوداوية واليأس ماثلان تحت سطح الحالة

التافهة والمرحة. وينتابه شعور بالقلق وتراوده أفكار الانتحار. والمستقبل يبدو خاوياً وبلا معنى بالنسبة له. وهو يحتقر الحياة العادية التقليدية احتقاراً تاماً. وحياة عصره بائسة لأنها حياة بلا انفعال أو عاطفة. ومادة القراءة المحببة لديه هو العهد القديم وشكسبير. ولكنه أحياناً ما يعيش لحظات شعرية من الجمال تتخللها غنائية. إن الشخص الجمالي (أ) هو شخص (رومانتي) قطعاً وهو يمثل فكاهة الكآبة بين ارستقراطية عصره المثقفة وهو إلى حد بعيد يمثل نمطاً أدبياً. ولكن يوجد بالإضافة إلى هذا علاقة واضحة بين الشخص الجمالي (أ) وخصائص معينة عند كيركجرد الشاب. ويكاد يكون كل شيء كتبه الشاب الجمالي (أ) إشارة مباشرة أو غير مباشرة لحياة كيركجرد الشخصية إبان سنوات شبابه. وربما نتبين هذا في جانب منه من الشذرات والحكم التي تكون من العنوان «مدخل» الجزء الأول من الكتاب. وهي تكاد تقوم في غالبيتها على مداخل خاصة للغاية في يومياته عن سنوات ١٨٣٥ - ١٨٣٩ أي يومياته عندما كان في الثالثة والعشرين إلى السادسة والعشرين وفيما يلي بعض الأمثلة:

«وكما تقول الأسطورة فقد بارفينسكوس القدرة على الضحك عندما كان في كهف تروفونيوس، لكنه استردها عند ديلوس لمرأى كتلة هلامية تمثلت في صورة الرّبة (ليتو). وهذا هو ما حدث لي. عندما كنت شاباً للغاية وأنا في كهف تروفنسيوس

نسيت كيف أضحك، وعندما شببت عن الطوق وأنا اتطلع إلى الواقع بدأت أضحك ومنذ ذياك الوقت لم أتوقف. لقد رأيت أن معنى الحياة هو الحصول على معيشة وإن هدفها هو إحراز مكانة عالية، وإن أغنى بهجة هي الحصول على فتاة غنية، وأن مساعدة آخر في المتاعب المالية هو فرح الصداقة، وأن ما تقبله الأغلبية كحكمة هو على هذا النحو، وأن إلقاء خطبة هو حماسة والشيء الرائع أن تُمنح مصروفاً عشرة شلنات، وأن من الأشياء الودودة أن تبدي شكرك لغدوة، وأن من التقوى أن تتلقى عشاء مشتركاً مرة في العام. لقد رأيت كل هذا وضحكت.

* * *

«لندع الآخرين يشتكون من هذا العصر الذي هو عصر الشر، إنني أشكو لأنه عصر تعس، لأنه عصر بلا عاطفة. وأفكار الناس نحيلة وهشة كرباط الحذاء وهم أنفسهم تافهون تفاهة صناع أربطة الأحذية. إن أفكار قلوبهم تافهة حتى أنه لا يمكن وصفها بالإثم. بل ربما يكون من الإثم أن تعتنق دودة مثل هذه الأفكار فما بالك بإنسان خُلق على غرار صورة الله. أن شبقهم آسن وراكد وعواطفهم هاجعة، ومع هذا فهم يشبهون اليهود في أنهم يسمحون لأنفسهم بأن يعضوا على قطعة العملة النقدية بأسنانهم، إنهم يظنون أنهم حتى لو حافظ الرب على قوانينه بدقة فإنهم يستطيعون أن ينطلقوا وهم يخدعونه قليلاً. عار عليهم!

ولهذا فإن عقلي يرتد ثانية إلى العهد القديم وإلى شكسبير. هناك تستطيع أن تشعر بأن الشعب يتكلم، هناك الشعب يكره والشعب يحب ويقبل عدوه ويلعن نسله عبر جميع الأجيال وهناك الشعب يأثم.

* * *

«كم هي الحياة فارغة وبلا معنى. - الإنسان يدفن شخصاً ما، إنه يتبعه حتى القبر، وهو يلقي ثلاث حفنات من التراب عليه، وهو يركب إلى هناك عربة، ويعود إلى بيته راكباً عربة، وهو يعزّي نفسه بأن حياة طويلة تنتظره. فكم طول ثلاث سنوات جارحة وعشر؟ لماذا لا يتخلص منها الإنسان في التو؟ لماذا لا يقيم الإنسان هناك ويهبط إلى القبر بالمثل ويسحب القرعة لهذا الذي سيكون لسوء حظه آخر الأحياء ويلقي بآخر ثلاث حفنات من الأرض على آخر الموتى؟

* * *

«المسنون يدركون أحلام الشباب، ونحن نبين هذا عند سويفت، لقد بنى في شبابه مصحة للمجانين وفي الشيخوخة دخلها هو نفسه.

* * *

«هناك مناسبات معينة تعطي للإنسان شعوراً بالأسى

الكامل لمرأى إنسان وحيد تماماً في العالم. وكما حدث لي مؤخراً عندما رأيت فتاة فقيرة تسير بهدوء إلى الكنيسة حتى يتصدقوا عليها.

* * *

«إن نفسي مثقلة حتى أنه ما من فكرة بقادرة على تعزيتها، ما من خفقة مجنحة يمكن أن ترفعها إلى الأثير، وإذا ما تحركت على الإطلاق فانها تلتصق بالأرض مثل الطيران المخفض للطيور عندما تهددها العاصفة الرعدية. وفوق وجودي الداخلي يحلق يأس وقلق يحدث داخلها زلزالاً.

* * *

«ما الذي سيحدث ؟ ما الذي سيحمله المستقبل ؟ أنا لا أعرف، ليست لدي أدنى فكرة، فعندما يندفع عنكبوت من نقطة ثابتة إلى النتائج المترتبة على اندفاعه فإنه يرى أمامه فراغاً خالياً حيث لا يتبين أثراً ولا يهم ما قد يتخبط فيه. وهكذا الحال معي، أمامي دائماً الفراغ الخالي، والذي يدفعني هو النتيجة القائمة ورائي. إن هذه الحياة مقلوبة رأساً على عقب ومخيفة ولا يمكن لإنسان أن يطيقها.

* * *

«وهكذا أنا لست سيد حياتي، إنني لست إلا خيطاً يتناسج

في قماش الحياة ! حسناً جداً، حتى لو لم أستطع أن أغزل فإنني أستطيع على الأقل أن اقطع الخيط.

* * *

«لا توجد فترة عجيبة في الحياة مثل أيام الحب الأولى عندما يحمل المرء مع كل لقاء وكل نظرة مختلسة شيئاً جديداً للبيت ليبتهج به.

* * *

«حيث لا تستطيع أشعة الشمس أن تنفذ فإن صوت الموسيقى يستطيع أن ينفذ. إن غرفتي مظلمة وكئيبة، وهناك جدار عال يكاد يحجب ضوء النهار. لا بد أنه يوجد في الفناء المجاور موسيقي جوّال. أية آلة هذه ؟ هل هي ناي ؟. . . ما الذي أسمعه ؟ ـ الموسيقى الهادئة من دون جوان! ثم تحلق بي بعيداً على النغمات القوية والعنيفة حيث جوقة البنات إلى فرح الرقصة ! ـ إن الكيميائي يدق هاونه والفتاة تقلّب الوعاء وصبي الاصطبل يمشط شعر حصانه وينفض التراب عن المشط على الحصى، إن هذه النغمات من أجلي فقط، إنها لا تغري أحداً عداي. أواه، مهما تكن أنت فلك تشكراتي!! إن نفسي غنية وقوية وغارقة للغاية في الفرح. إن الشمس تسطع بجمال وبمرح في غرفتي للغاية، والنافذة في الغرفة المجاورة مفتوحة، وفي الشارع كل شيء ساكن، فالوقت بعد الظهر في يوم الأحد،

وأستطيع أن اسمع بوضوح قبّرة تَرتعش خارج النافذة من أحد البيوت الملحقة، خارج النافذة حيث تعيش الفتاة العاشقة، وفي البعيد في شارع ناء أستطيع أن اسمع بائعاً جوالاً ينادي على سلعه، إن الجو دافىء للغاية ومع هذا فإن المدينة كلها تبدو مهجورة ـ وحينئذ تذكرت شبابي وحبي الأول ـ عندما اشتقت، الآن لا أشتاق! لا لاشتياقي الأول. ما هو الشباب ؟ حلم. ما هو الحب ؟ إنه ليس إلا محتويات الحلم».

* * *

واضح أن الجمالي (أ) معجب إعجاباً شديداً بدون جوان لموزار وهو يعطي تعبيراً روحياً عن هذا الإعجاب في بحثه عن «المراحل الغرامية المباشرة أو الموسيقية». وسورين كيركجرد يفرق تفرقة سيكولوجية بين نمطين مختلفين للمغتصب، وهو يسميها المغتصب التلقائي والمغتصب المتأمل. والأخير هو مغتصب بالمعنى الحقيقي للمصطلح. وهو يشق طريقه بمكر ودهاء في قلب فتاة شابة إلى أنه يكتسب التسيد عليها، وهو ـ وفق خطاطية محددة ـ يغتصبها، ولا يقوم اي من لذته في استمتاعه الشيطاني في الخداع، في المكر نفسه. إن المغتصب التلقائي ليست له خطة منظمة، إنه يغتصب، أو يحدث له أن يغتصب بفضل طبيعته، بفضل غريزته الحسية، بفضل حيويته، وإن لذته هي لذة امتلاك. مثل هذا المغتصب التلقائي هو دون جوان عند موزار.

وهو لا يمكن تجسيده حقاً إلا بشكل موسيقي.

«إن طريقته في الخداع هي عبقرية النزعة الحسية، التي يعد هو تجسيداً لها، وإن حياته تتألق مثل النبيذ الذي يقويه، إن حياته تثار إثارة عميقة مثل الموسيقى التي تكون مصاحبة لأعياده المرحة، إنه منتصر دائماً. إنه لا يحتاج إلى استعداد، ولا إلى خطط، ولا إلى وقت، لأنه مستعد دائماً، لأن القوة موجودة دائماً فيه وكذلك الرغبة وكل ما يحدث هو أنه عندما يرغب يكون في أقصى جوهره. وهو يجلس أمام المنضدة، وهو مرح أشبه بإله يملأ كأسه بالنبيذ ـ إنه ينهض والمنشفة في يده مستعداً للهجوم. وإذا حدث وأيقظه لوبوريللو في منتصف الليل فإنه ينهض وهو متأكد من انتصاره. غير أن هذه القوة، هذه الطاقة لا يمكن التعبير عنها في كلمات، كل ما هنالك هو أن الموسيقى يمكن أن تعطينا فكرة عن ذلك، لأنه مما لا يمكن التعبير عنه في الفكر والتأمل. إن مكر المغتصب التأملي يمكن أن أعبر عنه بوضوح بكلمات والموسيقى لا تستطيع إطلاقاً أن تعبر عن هذه المهمة. والعكس في حالة دون جوان. فأية قوة هذه؟ ولا يستطيع إنسان أن يقول، حتى لو شالت زرلين عنها قبل أن تتوجه للمرقص، . . ما هي هذه القوة التي تربطك بها؟ فإنها لا تستطيع إلا أن تجيب بقولها: لا يستطيع أحد أن يرد، ويجب علي أن أقول: «حسناً، لقد قالت طفلتي!» أنت تتكلم بحكمة أشد من الحكماء الهنود ولسوء الحظ لا أستطيع

أنا أيضاً أن أرد».

إن الجمالي (أ) لا يستطيع أن يصدر حكماً أخلاقياً على دون جوان. فليس هذا من شيمه لأنه يمثل النظرة الجمالية للحياة، والتي هي بالمصطلح الحديث بمعزل عن الأخلاق ومقولته الأساسية هي: اللذة. إن من خصائص كيركجرد أن يفرق تفرقة حادة بين (مجالات الوجود). إن كيركجرد يستطيع أن يضع الكلمات على لسان الجمالي المطلق (أ) الذي له تأثير حسي ومتحدٍّ على معاصريه المتوسطي القدرة،والوضع وليس لأن الكلمات قد كتبها لاهوتي. ولنأخذ هذه الكلمات على سبيل المثال: «ليس دون جوان ناجحاً مع الفتيات فحسب، بل هو يجعلهن أيضاً سعيدات و ـ تعسات، ولكن من الغريب إن هذا هو ما يحببنه وستكون الفتاة فتاة سيئة إذا أرادت أن تكون تعسة بعد أن كانت سعيدة مع دون جوان». كيف يمكن للجمالِي (أ) أن يكتب هذا؟ أليس القول (فتاة سيئة) حكماًأخلاقياً؟ على هذا التساؤل لا بد للجمالي (أ) أن يرد: كلا، إنه مجرد حكم (جمالي). فلما كان هناك افتراض يذهب إلى أن اللذة هي هدف الحياة فإن من المفروض أن تكون الفتاة (فتاة سيئة) إذا لم تكن لديها مثل هذه الرغبات. ومن الضروري دائماً ونحن نقرأ كيركجرد أن نضع في اعتبارنا (مَنْ) الذي يتلكم وأن نستدعي (النقطة المحورية) التي يذهب إليها المتكلم).

في التحليل البارع الذي يقوم به الجمالي (أ) لدون جوان عند موزار يمكننا أن نلاحظ مرة وأخرى ـ مع هذا ـ بشكل غير مباشر تقريباً أن الحكم الجمالي لدون جوان ليس هو الحكم الممكن الوحيد،بل ينتظره حكم أخلاقي وحكم ديني وهما حكمان يصدرهما عليه الآخرون. وكما هو معروف تماماً، يحدث هذا بالفعل في نهاية الأوبرا. فمن الخصائص المميزة لكيركجرد أنه يعزو (قلقاً جوهرياً) لدون جوان. وفي التحليل البارع لافتتاحية دون جوان حيث يشار إلى قوة دون جوان تقارن الموسيقى مع العاصفة الرعدية المتجمعة مع البرق الذي يسطع في ظلام الأفق البعيد.

«وكما أن العين تستشرف بفضل هذا الوميض الأول للإضاءة فكذلك الأذن تستشرف بفضل هذه الطرقة التي تموت والخاصة بقوس العواطف كلها. ويوجد قلق في تلك الومضة، ويبدو الأمر كما لو أن الظلام العميق قد تولد في القلق ـ وأحياناً دون جوان يشبه هذا الأمر. هناك قلق في داخله، لكن في هذا القلق تكمن طاقته. لا يوجد في الإفتتاحية ما يقال عادة عن جهل بوجود اليأس. إن الحياة ليست يأساً، لكنها القوة الشاملة للنزعة الحسية التي تتولد في القلق، ودون جوان نفسه هو هذا القلق، لكن هذا القلق نفسه هو الشهوة الشيطانية للحياة. وعندما أبدع موزار دون جوان تنكشف حياته لنا في النغمات الراقصة للكمان،

حيث يعبر برقة ورهافة على هاوية والأمر أشبه بحجر يلقى ويمس سطح الماء حتى يظن لوهلة أن الحجر يتواثب مع القفزات على حين أن الحجر بمجرد أن يكف عن الوثوب يغوص في الأعماق، وهو بالمثل يرقص فوق الهاوية وهو مبتهج في وثبته القصيرة».

والدراسات التي يأخذ بها الجمالي (أ) والتي تعقب هذا تتألف من خمس دراسات ولها محتويات مختلفة بالرغم من أنها جميعاً مرتبطة بالنظرة الجمالية للحياة. ولن نشير هنا إلا إلى (المناوبة بين المحاصيل الزراعية) حيث أكبر عرض مكثف لوجهة النظر الجمالية للحياة وقد وصلت إلى ذروتها المنطقية وترد في شكل موجز ودقيق. فالجمالي (أ) يفترض أن «من قدر البشرية أن تبهجه» ولهذا يوصي بالطريقة الزراعية الخاصة بتعاقب المحاصيل الزراعية وهي طريقة خاصة بعدم تغيير التربة بل تقوم على استبدال طريقة الزراعة وأنواع البذور. والشيء الجوهري هو القدرة على التعامل مع الوجود كله وعدم الغرق في أي من العلاقات مع الحياة سواء كانت صداقة أو زواجاً أو مهنة محددة. والمسألة مسألة الاحتفاظ بحالة طافية زئبقية كلية. إنها مسألة تغيير الانسان لذاته دائماً. والسر كله يكمن في التعسف. فكلما كان الإنسان أكثر قدرة على الاختراع في تنويع طرق الزراعة كان هذا للأفضل. وإلا أنتهى كل شيء إلى سأم التكرار.

مذكرات مُغْوي الفتيات

الجزء الأول من كتاب (إما . . أو) ينتهي (بمذكرات مُغْوي البنات). وقد أثار هذا انتباهاً شديداً وفضيحة كبرى في كوبنهاجن في ذلك الوقت بسبب جرأة الأفكار والأوصاف الشبقية. ولقد نشر هذا الكتاب منفصلاً في الترجمات للغات الأوروبية باعتباره جزءاً من الأدب المكشوف. ولكنه بالإضافة إلى هذا قطعة آسرة من السيكولوجيا بصرف النظر عن التعبير بالأسلوب المعتاد. والكتاب نشر باعتباره من تأليف جوهانز وهو اسم مُغْوي البنات. وعلى حين أن الجمالي (أ) شخصية سوداوية يبحث في يأسه عن المتعة دون أن تكون لديه القابلية الحقيقية للاستحواذ عليها، نجد جوهانز رجلاً عارماً ممتلئاً باللذة. وهو

بنزعة السخرية الوقحة يقتفي آثار دون جوان غير أنه يمثل مغوي البنات (المتأمل) الذي يغوي وفق خطة محددة.

يلاحظ جوهانز في الطريق فتاة شابة تثير انتباهه، فيتقصّى المعلومات عن أسرتها وبهذا يجد استهلالاً. واسم الفتاة هو كورديليا وهي على وشك أن تُخطب لأدوارد الذي يظهر أنه إنسان ساذج. وينجح جوهانز في أن يجعل من أدوارد أضحوكة في نظر كورديليا وسرعان ما تخطب لجوهانز. لكن لم يكن هذا إلا مناورة من جانبه، فهو باعتباره شخصاً جمالياً ودون جواناً حقيقياً لا يريد الفتاة بهذه الطريقة المعتادة التقليدية، وهو ينجح في أن يجعل كورديليا تسأم مسألة الخطوبة حتى أنها تفض الخطبة. وإلى هذه اللحظة يكون قد أحكم الحصار حولها حقاً «حتى يمتلكها في حريتها». وهو ينجح نجاحاً باهراً وتستثيرها حركاته فتستسلم له: وفي اليوم الذي يعقب ليلتهما الأولى، يتركها وهو عازم على ألا يراها بعد هذا إطلاقاً.

وقد يلوح لقارىء اليوم أن (مذكرات مُغْوي البنات)كتابٌ مليء بالاطناب،لكن هناك عاطفة فريدة وراء القصة التي ترقى أحياناً إلى مستوى الشعر الأصيل. ومن بين أجمل ما فيه المذكرات التي أرسلها جوهانز إلى كورديليا ليجعلها تقلق من الخطوبة وتوقظ فيها الرغبة في الحب المتحرر.

«عزيزتي كورديليا ! إن الحب يحب السرية ـ والخطوبة مسألة علنية، إن الحب يحب الصمت ـ والخطوبة إعلان، الحب يحب الهمس ـ والخطوبة دوّي مرتفع الرنين، ومع هذا فبظن كورديليا تكون الخطوبة هي أفضل وسيلة حقيقية لخداع العودة. ففي جنح الظلام ليس هناك شيء أكثر خطورة بالنسبة للسفن الأخرى أكثر من تعليق مصباح يكون أكثر خداعاً من الظلام. حبيبك جوهانز».

* * *

«عزيزتي كورديليا! هناك مركبة صغيرة تقف عند الباب هي بالنسبة لي أوسع من العالم كله لأنها واسعة حتى أنها تتسع لاثنين، وهي مشدودة إلى جوادين متوحشين لا جامح لهما كقوى الطبيعة غير صبورين كعواطفي وجريئين كأفكارك. فإذا رغبت فسوف أحملك بعيداً. عزيزتي كورديليا! هل تأمرينني ؟ أن أمرك هو الكلمة التي تطلق الأصفاد وفرح الإنطلاق. سوف أحملك بعيداً لا من بين جماعة من الناس إلى جماعة أخرى، بل سأحملك إلى خارج العالم. إن الجوادين يشبان على قوائمهما والعربة ترتفع ويكاد الجوادان يمران فوق رأسينا، إننا نصاعد في السماء عبر السحب، والريح تصفّر من حولنا، فهل لا نزال واقفين والعالم يتحرك من حولنا، أم أن هذا هو هربنا الكبير؟ لو كنت طائشة يا عزيزتي كورديليا إذن أوقفيني فلن أكون طائشاً. لا

يكون الإنسان طائشاً على الإطلاق عندما لا يفكر الإنسان إلا في شيء واحد، وأنا لا أفكر إلا فيك، هذا من الناحية العقلية أما من الناحية المادية لا يكون الإنسان طائشاً على الإطلاق عندما يثبت أنظاره على هدف واحد، وأنا لا أتطلع إلا عليك. تمسكي بي بشدة، فلو اختفى العالم، ولو اختفت عربتنا الطائرة من تحتنا فسوف نظل متعانقين ونحن نحلق في تناغم أثيري. حبيبك جوهانز».

* * *

عزيزتي كورديليا أيمكنك ان تقرئي في قصص الجنيات القديمة أن أحد الأنهار وقع في غرام فتاة. وهكذا روحي مثل النهر الذي يحبك. إنها الآن هادئة وصورتك منطبعة بعمق وهدوء على صفحتها وهي تتخيل الآن أنها استولت على صورتك وأمواجها تصطخب لتمنعك من الهرب ثانية، والآن إن سطحها يتماوج بنعومة ويلعب مع صورتك وأحياناً ما يفقدها وحينئذ تصبح الأمواج سوداء ويائسة. هكذا نفسي، مثل نهر قد وقع في حبك. حبيبك جوهانز».

* * *

«عزيزتي كورديليا! هل المعانقة حرب ونزال؟ حبيبك جوهانز».

* * *

«عزيزتي كورديليا! أنت تتشكين من خطوبتنا، أنت تشعرين بأن حبنا لا يحتاج إلى رباط خارجي وأن هذا الرباط ليس إلا قيداً. في هذه المسألة أنا أفهم على نحو مباشر .رائعتي كورديليا! في الحقيقة، إنني أعجب بك. إن الرابطة الخارجية ليست إلا انفصالاً. لا يزال هناك انفصال يفرق بيننا. إن معرفة الآخرين بسرنا لا تزال تقلقنا. لا توجد الحرية إلا في المعارضة. وعندما يشك الآخرون في الحب ساعتها فقط يكون له معنى. عندما يعتقد كل الخارجيين أن المحبين يكرهان بعضهما عندئذ فقط يكون الحب سعيداً. حبيبك جوهانز».

* * *

«عزيزتي كورديليا ! الآن حقاً أستطيع أن أسميك وأعتبرك (فتاتي)، ولا توجد أمارة خارجية تذكرني بملكيتي، وعندما اتشبث بك وأنت متعلقة بذراعي، وعندما تتسللين داخلي في عناقك، حينئذ لا نكون في حاجة إلى خاتم يذكرنا بأننا نخص بعضنا، أفليس هذا العناق خاتماً هو أكثر من علاقة أو أمارة ؟ وكلما ازددنا عناقاً بهذا الخاتم، ازددنا ارتباطاً لا ينفصم وازددنا حرية،لأن حريتك قائمة في أن تكوني لي بمثل ما أكون أنا لك. حبيبك جوهانز».

* * *

«عزيزتي كورديليا! بينما كان آلفيوس يصطاد وقع في حب

الحورية أرتيوسا. وهي لم تكن تنصت لأحاديثه بل كانت تهرب منه دائماً إلى أن تحولت في جزيرة أورتيجيا إلى ربيع. ولقد حزن آلفيوس على هذا كثيراً حتى لقد استحال إلى نهر. ومع هذا لم ينسَ حبه، بل تحت البحر ربط نفسه بذلك الربيع. فهل ولّى زمن التحول؟ أجيبيني: هل ولت أيام الحب؟ كيف يمكنني أن أقارن روحك العميقة النقية التي لا رابطة لها بالعالم إلا بالربيع؟ وألم أقل لك أنني مثل النهر الذي وقع في الحب؟ وألسنا الآن منفصلين؟أتدفق تحت البحر لكي أتحد بك؟ تحت البحر سوف نلتقي ثانية ففي ذلك العمق نمتُّ إلى بعضنا حقاً. حبيبك جوهانز».

ويكتب جوهانز في اليوم الذي أعقب ليلة حبهما الوحيدة:

«لماذا لا تكون مثل هذه الليلة أكثر طولاً؟ إذا كان في استطاعة الكترون أن ينسى نفسه فلماذا لا تكون الشمس متعاطفة بالمثل؟ ومع هذا لقد انتهت ولا أريد أن أراها ثانية. عندماتستسلم فتاة كلياً فإنها تكون ضعيفة وتكون قد فقدت كل شيء، فالبراءة عامل سلبي في الإنسان، لكنها بالنسبة للمرأة هي جوهر وجودها. والآن كل مقاومة مستحيلة، وعندما توجد فقط يكون الحب جميلاً، وعندما تكف تصبح ضعفاً وعادة. لا أريد أن أذكّر بعلاقتي بها، لقد فقدت سحرها وتكون قد ولت تلك الأيام التي فيها تستحيل الفتاة في انفعالها إزاء حبيبها غير

المخلص إلى عباد للشمس. لن أودعها، فلا شيء يخنقني قدر دموع المرأة وصلواتها التي تغير كل شيء ومع هذا ليست لها أهمية حقيقية. لقد أحببتها، ولكن من هذه اللحظة وصاعداً لم تعد تستطيع أن تشبع نفسي. ولو كنت إلهاً لكنت فعلت لها ما فعله نبتون للحورية، لكنت حولتها إلى رجل».

القاضي وهلم

في الجزء الثاني من كتاب (أما . . أو) يكون المتحدث هو القاضي وهلم. وفي بحثين على شكل رسائل إلى (صديقه الشاب) ألا وهو الجمالي (أ) يطرح نظرته الأخلاقية في الحياة ويسعى حثيثاً إلى تغيير موقفه. فكل نظرة جمالية للحياة بصرف النظر عن مدى رهافتها وروحانيتها تفضي عاجلاً أو آجلاً إلى اليأس. وفي الحقيقة (تكون) هي اليأس حتى لو لم يكن الجمالي على علم بهذا. إن اقتفاء اللذة هي محاولة النفس أن تنسى ذاتها. لكن النفس في المدى الطويل لن تُهزم فعاجلاً أو آجلاً ستتطلب نظرة للحياة ترى الحياة باعتبارها (مهمة أو وظيفة). مثل هذه المهمة مطروحة أمامنا جميعاً وكل فرد يجب أن يسعى إلى تحقيقها

وفق مزاجه وظروفه الخاصة. وعندما يجري تقبل المسؤولية تكون الحياة قد اكتسبت معنى في هذه اللحظة فقط. والعامل الحاسم هو أن الإنسان يدرك هذا و(يختار نفسه) كما يقول القاضي بدل (أن يختار اللذة).

وعلى أية حال لا يعني هذا أن (الجمالي) يجري كبته ومنعه. فهناك نقطة على جانب كبير من الأهمية عند القاضي هي أن الجمالي يمكن أن يعيش جنباً الى جنب مع الأخلاقي، وأن الجمالي لا يتطور تماماً إلى أن يقوم على أرضية أخلاقية. والبحث الأول للقاضي يحمل العنوان المميز (المشروعية الجمالية للزواج). هنا يتأكد أن «الحب الرومانتي يمكن أن يلتحم بالزواج حتى أن الزواج هو تناسخه الحقيقي» أو كما تقرر أيضاً هو «أن الزواج هو تناسخ الحب الأول وليس فناءه، إنه صديقه وليس عدوه» والعنوان الأكثر دلالة هو عنوان البحث الثاني: (توازي الجمالي والأخلاقي في تنمية الشخصية). والعامل الحاسم في تطور الفرد إلى الشخصية الأخلاقية هو (التوازي) بين الجمالي والأخلاقي حيث يجب أن يكون الأخلاقي هو الأساس مع هذا. ويتميز هذا البحث بدفء إنساني فريد.

«ان من يختار أخلاقياً ويجد نفسه (يمتلك نفسه) حيث يتحدد في كيانه الكلي. إنه يمتلك نفسه كفرد، يمتلك هذه القدرات وهذه العواطف وهذه الميول وهذه العادات التي تتأثر

بهذه التأثيرات الخارجية. والمهمة في أن يأخذ الامور على عاتقه قائمة في التنظيم والتشكيل والاشتغال والقهر. بالاختصار قائمة في أحداث توازن في النفس، أحداث تناغم يكون ثمرة الفضائل الشخصية. وهدف نشاطه هو هنا نفسه ومع هذا ألا يتحدد قسراً فقد أعطيت له النفس كمهمة حتى لو كانت نفسه هو لأنه اختارها. ولكن بالرغم من أنه هو نفسه هدفه فإن هذا الهدف ليست نفساً تجريدية تكون صادقة في كل موضع ،وبالتالي لا تكون صادقة في أي موضع بل هي نفس عينية تعيش في تفاعل مع هذه الأشياء المحيطة الخاصة، هذه المواقف، مع حالة الأمور هذه. إن النفس التي هي هدف ليست مجرد نفس شخصية بل هي نفس اجتماعية، نفس مدنية. لهذا فإنه هو نفسه هو مهمته كنشاط حيث يتصرف ـ باعتباره هذه الشخصية عينها ـ إزاء ظروف الحياة».

إن القاضي ولهلم قانع بهذا الموقف إزاء الحياة. ولقد أفضى به هذا إلى أن يتطور بتناغم كشخص وكمواطن ،وعبر عن هذا في أغلب الأحيان بمصطلحات رزينة ومتزنة وهو أمر مختلف تماماً عن طريقة كيركجرد المعتادة والمثيرة. ومثال على هذا القطعة التالية التي تلخص موقف القاضي من الحياة:

«إنني أنفذ واجباتي كقاض في محكمة العدل، وأنا سعيد برسالتي، وأعتقد أنها تماثل قدراتي وشخصيتي بتمامها، وأنا

أعرف أن لها مطالب من ناحية طاقتي وأنا أسعى إلى أن أكيف نفسي معها بشكل أكبر وعندما أفعل هذا أشعر أيضاً بأنني أزيد من تطوير نفسي . إنني احب زوجتي وأنا سعيد في البيت، إنني أسمع زوجتي تغني بلطافةويخيل إليّ أن الأغنية أجمل من أيةأغنية أخرى بالرغم من اعتقادي أنها ليست مغنية، إنني اسمع الطفل يصيح وصياحه في أذني ليس نشازاً وأنا أرقب أخاه الأكبر يشب وينمو وأتأمل في مستقبله بفرح وثقة وليس بفراغ صبر فلديّ الكثير من الوقت للانتظار، والانتظار نفسه فرح بالنسبة لي. وان وظيفتي هامة بالنسبة لي وأعتقد إلى حد ما أنها مهمة بالنسبة للآخرين أيضاً وان كنت لا أستطيع أن أحدد وأن أحصي بالدقة. ولدي شعور بالسعادة لأن الحيوات الشخصية للآخرين مهمة بالنسبة لي، وإنني أرغب وآمل أن تكون حياتي مهمة بالنسبة لأولئك الذين أتعاطف معهم في كل منعطفاتي في الحياة. إنني أحب بلادي ولا أستطيع أن أتصور نفسي مزدهراً في أي بلد آخر. إنني أحب لهجتي المحلية التي تطلق العنان لأفكاري، وأنا أجد أن ما أود ان اقوله في العالم استطيع ان اعبر عنه من خلالها. وبهذه الطرق تكون حياتي مهمة بالنسبة لي للغاية حتى انها تجعلني سعيدا وقانعا وراضيا. وبالاضافة الى كل هذا انني اعيش في مجال أعلى للحياة، وعندما يحدث أحياناً أن أخلط هذه الحياة الأرقى والأعلى بأنفاسي الأرضية والمحلية،فإنني أعتقد حينئذ إنني مبارك ويصبح

الفن والبركة شيئاً واحداً بالنسبة لي. وهكذا أحب الحياة حقاً لأن الحياة حلوة وإنني آمل في حياة تكون أكثر حلاوة».

ويمكننا أن نتساءل كيف وقف سورين كيركجرد نفسه شخصياً إزاء هذا الاختيار: (أما. . . أو) والذي عرضه بمثل هذا الفن الرائع والمعرفة العميقة بالطبيعة الانسانية في أول كتاب هام له؟ هل كان هو نفسه مواجهاً باختيار بين (الجمالي) و(الأخلاقي)؟ الجواب معقد إلى حد ما لكن لا يمكن الشك فيه.

ليس هناك شك أن النظرة الجمالية للحياة كانت مغيرة للشاب كيركجرد بمثل ما كانت مغرية لآخرين عديدين في ذلك العصر الرومانيّ المتأخر، المتسم بسمات الشاعر بايرون الممتلىء بالكسالى الجماليين الأثرياء والذين هم ذوو ألمعية عالية. وفي طبيعة كيركجرد مزاح مسبق مقرر نحو ما هو جمالي - أبيقوري. ولقد عاش الواقع أشبه بالشاعر الحقيقي وتبرز للغاية إدراكه الحسي والمرهف للذات الحياة المرهفة. لكنّ في طبيعته أيضاً شعوراً فريداً راقياً للغاية. بالواجب والاحساس بالمسؤولية وهذا الشعور يكتشف في كل لحظة من لحظات الحياة واجبات و(مهام). لقد شعر بأن (الأخلاقي) يلقي عليه «بمطلب شديد على كل إنسان» والأخلاقي يعني «تحقق ما هو كلي». ومن ثم

سرعان ما نال درجته العلمية وبعد هذا خطب. ولا بد أنه قد شعر أن واجب كل إنسان أن يتزوج. إنه واجب المواطن، ما لم تمنعه أسباب. ولقد كرر كيركجرد في يومياته حيث يعبر دائماً عن آرائه الشخصية عن أنه «يحب ما هو كلي مع سوداوية» وأن فرحه الأكبر إذا استطاع أن يحقق الكلي أي الكلي حتى تمامه.

ومن المحتمل للغاية أن الاختيار بين (الجمالي) و(الأخلاقي) كان محيراً في بعض الأوقات بالنسبة لكيركجرد الشاب. غير أن خطوبته المأساوية علمته أن هناك «جانباً من الكلي» هو غير قادر على تحقيقه ألا وهو الزواج. لقد شعر بأنه قد وصل هنا إلى «حدود الفردية» بالرغم من أنه لم يكشف في أي موضع آخر بوضوح عن ماهية هذه الحدود. وعندما كتب كيركجرد (أما. . أو) بعد الخطوبة في الثلاثين من عمره، لم يكن أمامه أي اختيار بين (الجمالي) و(الأخلاقي) بالمعنى الكامل لهذا المصطلح حيث يلعب الزواج دوراً سائداً.

ويتضح هذا بالمساهمة النهائية التي يقدمها القاضي ولهلم. فبعد أن عرض نظرته الأخلاقية في الحياة بطريقة عينية يستخلص القاضي نتائجه في الصفحات الأخيرة من بحثه الطويل عن جماعة من الناس يسميهم (المستثنين). وهؤلاء هم الناس الذين ـ لسبب أو آخر ـ «لا يستطيعون أن يحققوا الكلي» على الأقل

الكلي في تمامه. مثل هؤلاء الناس يجب أن يوجدوا. فإذا كان هناك إنسان وهو يحاول أن يؤدي المهمة الملقاة على عاتقه والملقاة بالمثل على عاتق الآخرين، والتعبير عما هو إنساني كلي في حياته الفردية والتقى بصعوبات، فإذا وجد جانباً من الكلي مستحيلاً عليه أن يتمثله في حياته، فماذا يفعل؟ أولاً سيفكر في مدى حقيقته. ربما يلام الإنسان على عدم كماله، وهو قد يمتلكه على نحو ناقص لكن قد يكون حقاً إنه عاجز عن تحقيق الكلي. ربما مثل هذا الاعتبار قد يبدو غير كاف بالنسبة له وسوف يخاطر بالمحاولة. وقد يفضي هذا إلى تأكد أن فرضه صحيح. ومثل هذه القناعة ستولد أسى عميقاً في ذهنه. «إنه سوف يبتهج من أجل الآخرين الذين وُهبوا القدرة على استخدام هذا، ربما سيدرك أفضل منهم جماله لكنه سوف يأسى ـ لا عن جبن وخسّه ـ بل بعمق وصراحة، لأنه سوف يقول: مع هذا فإنني أحب الكلي» غير أن (الاستثنائيين) لديهم بعض السلوان: فما فقده في المدى ربما قد كسبه في الحمية المكثفة. هذه هي الإمكانية القائمة أمام (المستثنين) لكي يكونوا أشخاصاً مستثنين بأكثر ما في الكلمة من نبالة. ولكن حتى لو كانت هذه هي القضية، فإنه مع هذا يعترف دائماً أنه سيكون أقرب للكمال بالنسبة له أن يتمثل كلية ما هو كلي.

وليس صعباً ان نتبين وراء هذه الملاحظات عن

(الاستثنائيين) وضع كيركجرد نفسه بعد الخطوبة التعسة. فما هي الإمكانيات التي كانت أمامه حينئذ ؟ لقد أصبح اختيار كيركجرد الشخصي اختياراً بين (الجمالي) و(الديني)، وبعد فسخ الخطوبة بفترة وجيزة كتب في يومياته: «عندما انفصمت العلاقة كان انطباعي على النحو التالي: إما أن تلقي نفسك في أقصى مرح وحشي (الجمالي) أو في النزعة الدينية المطلقة من نوع مختلف عما عند رجل الدين». ولقد اختار الأخير، اختار نزعة دينية ازدادت في طابعها المطلق مع السنين. لكنه شعر أولاً لا بحاجة إلى أن يوّصل أسبابه لعدم قدرته على تحقيق الكلي. وعلى أية حال إنه يقوم بهذا بأن يمزج الواقع والخيال والتصوف في جوهر شعري سام وعلى الإنسان أن يميز مكوناته الواحد من الآخر.

الرُّجْعَى

في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٤٣ أي بعد نشر كتاب (إما . . . أو) بثمانية أشهر ظهر كتيبان له في نفس اليوم: (الرُّجْعَى) و(الخوف والرعشة) ومحتوى الكتابين له ارتباط وثيق للغاية بالخطوبة المليئة بالمأساة.

(الرجعى) يبدو أنه كتاب ألّفه صاحب نزعة عقلية باردة هو قسطنطين قنسطنطيوس. وهو يسرد تعرفه (بشاب) واقع في الحب للغاية. وهو محبوب بدوره لكنه يكشف لصديقه أنه حتى بعد يوم أو يومين من الخطوبة «أنه قادر على تذكّر حبه»، وهذا هو ما يشغله فهو بدلاً من أن يتطلع إلى أمام إلى حياة الزوجية مع محبوبة، يتصور نفسه رجلاً عجوزاً جالساً في كرسيه يتذكر حب

شبابه . وهو بعد كل شيء قد تخلص من شبقه ، ويبدو كما لو كان قد فقد الحياة الطبيعية وبدلاً من هذا تتولد لديه قدرة إنتاجية شاعرية هائلة تبعث على الحياة تلهمها محبوبته . يقول قسطنطين قنسطنطيوس :

«الآن أستطيع أن أفهم كل هذا بسهولة. لم تكن الفتاة محبوبته، لقد كانت السبب الذي بعث الجانب الشعري فيه وجعلت منه شاعراً لهذا لا يستطيع أن يحب إلاّها ولا يستطيع أن ينساها ولا يستطيع أن يحب سواها ومع هذا لا يمكن إلا أن يشتاق إليها دائماً. لقد أصبحت جزءاً منه على نحو كامل، وذكراها دائماً متجددة. إنها تعني الشيء الكثير بالنسبة له، لقد جعلت منه شاعراً وهي بهذا قد وقعت شهادة موتها».

ويبدو من رسائل سورين كيركجرد إلى خطيبته ومن يومياته أن هذا هو بالضبط ما حدث في بداية خطوبة كيركجرد. فالشاب يتصرف بالطريقة نفسها التي تصرف بها كيركجرد في الواقع . فهو يفصم الخطوبة بعد (فترة رعب). لكنه بعد فسخ الخطوبة يواصل العيش بفكرة انه قادر فوق كل شيء ان يعود الى خطيبته ويحقق الزواج. ومشكلته هي ما اذا كان سيكون قادراً على ان يغير طبيعته بطريقة تجعله صالحاً كزوج . وفي النهاية يرجع الشاب الى البحث عن عون من الدين ويبحث عن الراحة في تفكير ايوب

الذي اخذ منه الله كل شيء ولكنه ارجع اليه كل شيء. وهذه هي (الرُّجْعى) الدينية.

لكنه لا ينجح، فالرجعى لا تحدث. فمن مخطوطة كيركجرد الأصلية يمكننا أن نتبين أنه في الكتابة الأولى جعل الكتاب ينتهي بانتحار الشاب. ولكن قبل طبع الكتاب حدث شيء غير متوقع في عالم الواقع وجاء مع هذا تغيير في المخطوطة. بإيجاز: عندما انتهى من المخطوطة وربما كان هذا في تموز (يوليو) ١٨٤٣ عرف كيركجرد أن خطيبته السابقة قد خطبت من جديد، ومن ثم تغير الموقف تغيراً كاملاً. لقد أصبح كيركجرد نفسه من جديد وأصبح حراً تماماً وغيّر من نهاية الكتاب وبدل أن ينتحر الشاب ينفجر فرحاً لاستعادة حريته كلية:

«لقد أصبحت نفسي مرة أخرى، وأن قوة السحر التي كانت تمارس عليّ فلا أستطيع أن أرتد إلى نفسي قد أنهارت. لقد انتهى الأمر، وزورقي قد طفا وفي لحظة سوف أرتد إلى النقطة التي تفوق عندهانفسي ،وحيث تنبعث الأفكار وهي تندفع مختلطة مع زئير العناصر وحيث الأفكار تهلل. إنني أمت إلى الفكرة. وهي عندما تؤميء إلي أتبعها، وعندما تنظم موعداً فإنني أنتظرها ليلاً ونهاراً ولا شيء يستبقيني للأفكار، ولا أحد يعد لي العشاء. وعندما يناديني ما هو مثالي فإنني ادع كل شيء. أن كأس السكر قد دارت لي ثانية وإنني أتنفس من عبقها. فلتحيى الفكرة الطائرة

فليحيى التكريس الشديد للفكرة، فليحيى خطر المعركة، فليحيى الفرح المبتهج للنصر، فلتحيى الرقصة في دوامة الأبدية، فلتحيى الموجة الدوّامة التي تقذفني إلى الهاوية، فلتحيى الموجة المتكسرة التي تقذف بي إلى أعالي النجوم».

الخــوف والرعشــة

ظهر كتاب (الخوف والرعشة) في نفس اليوم الذي ظهر فيه كتاب (الرُّجْعى) ولكن تحت اسم مجهول آخر هو جوهانز دي سيلنتيو. وواضح ان الموضوع الوحيد للكتاب تضحية ابراهيم ابنـه اسماعيـل . وقد جرى تحليل القصة القديمة بشكل فني مغرٍ وبجدل قوي. ان ابراهيم من وجهة النظر الانسانية أي الاخلاقية يعد قاتلاً بكل بساطة. لكنه يكتشف انه في صراع بين الأمر الاخلاقي الذي يقرر ألا يقتل الانسان والأمر الديني الذي يتطلب الخضوع لأمر الله.
والسؤال ينشأ عما اذا كان هناك واجب مـطلق نحو الله الذي يمكن ان يبطل قانوناً أخلاقياً؟ ويرد جـوهانـز دي

سيلنتيو بالايجاب عن هذا السؤال. وهنا وبتفرقة شديدة يفصل كيركجرد بين «مجالي الوجود» الأخلاقي والديني. ان عظمة ابراهيم تكمن في انه بالرغم من الأمر اللاإنساني الذي واجهه ـ أن يضحي بأبنه الوحيد ـ يتمسك بإيمانه بالله حتى النهاية ضد العقل. ولهذا يعد ابراهيم «أب الايمان» والكتاب الصغير يحتوي على «ثناء على ابراهيم» وهو ثناء حار.

غير ان الكتاب يحتوي على شيء اكبر من التحاليل والمناقشات عن ابراهيم واسماعيل. فعندما يكون الانسان على ألفة بتفاصيل حياة كيركجرد وظروفه تستضيء شؤونه الخاصة مرة أخرى في اشارات عديدة. أولها وفي مقدمتها قصة خطوبته. فهي تبدو للوهلة الأولى ان قصة ابراهيم واسماعيل لا شأن لها بها. ولكن لو كان الأمر على هذا النحو فإن الانسان يكون لم يعرف كيركجرد بعد. فالى درجة مدهشة كان قادراً في الأغلب ان يعكس حياته الشخصية وأحداثها في اجزاء اسطورية عديدة. وكما ذكرنا من قبل كتب كيركجرد نفسه انه شعر بصوت الله داخله يطلب منه ان يترك خطيبته: «يجب ان تتخلى عنها». لكننا نعرف أيضاً ان خطيبته قالت له من قبل الانفصال النهائي،

انه اذا تركها فسوف يكون في هذا حتفها. «لقد ألقت بجريمة على ضميري» والآن فإن التماثل مع ابراهيم يبدو معقولاً. فكما ان ابراهيم قد أمره الله بالتضحية بأسماعيل فإن كيركجرد ايضاً قد امره الله ان يتخلى عن خطيبته بالرغم من انها قالت ان في هذا حتفها. ولكن على عكس ابراهيم الذي استمر يأمل في مخرج سعيد ضد كل احتمال حتى اللحظة الأخيرة عندما استل سكينه على اسماعيل، فإن كيركجرد لم يكن عنده مثل هذا الأمل في الاحتفاظ بخطيبته. وعلى عكس ابراهيم لم يكن لديه ايمان على الأقل بالنسبة لهذه المسألة.

وكثير مما هو شخصي يمكن ملاحظته خلف كلمات كتاب «الخوف والرعشة» فلا يجب استبعاد توجيه الانتباه الى فقره محركاً تحريكاً عميقاً حيث يتحدث كيركجرد - دون الاشارة الى ابراهيم واسماعيل - عن مسرحية (ريتشارد الثالث) لشكسبير. انه يناقش مفهوم الشيطانية.

«كقاعدة عامة، لا يسمع الانسان الكثير عما هو شيطاني بالرغم من ان هذا يعد مجالاً له في عصرنا بصفة خاصة أهمية تقتضي اكتشافها، وبالرغم من ان المراقب يمكن ان يستفيد من أي شخص - على نحو وقتي على الأقل -

بشرط ان يعرف كيف يتصل بالشيطان. وفي هذا الصدد يعد ويظل شكسبير دائماً مبرزاً. ذلك الشيطان المخيف، اكبر شخصية شيطانية رسمها شكسبير بشكل لا يمكن مضاهاته. جلوشستر (الذي سيصبح فيما بعد ريتشارد الثالث) ما الذي جعله شيطاناً؟ واضح انه لا يستطيع ان يطيق الشفقة التي كان تحت رحمتها منذ طفولته . والمونولوج الذي يقول في الفصل الأول من مسرحية (ريتشارد الثالث) اكثر قيمة من كل مذاهب الأخلاق التي لا تستطيع ان تستوعب اشكال الرعب في الوجود أو تفسير الانسان:

«ولكنني أنا، أنا الذي لم أتكوّن من اجل الحيل البهلونية.

ولم أصنع لألعب دور المرأة العاشقة.

أنا الذي طُبعت على نحو وقح وأريد جلالة الحب.

أتبختر أمام حورية لاعبة لاهية

مغشوشة ملامحي بطبيعة خداعة.

فذلك غير مكتمل بُعثت قبل زماني.

الى هذا العالم المتنفس المتشح الذي لم يتشكل إلا نصف تشكل

وأنا أعرج ليس لي تكوين.

حتى ان الكلاب تنبح عليّ وأنا أتعثر بقربها».

ويعلق كيركجرد:

«ان الطبائع من أمثال طبائع جلوشستر لا يمكن إنقاذها بالتأمل في فكرة المجتمع. فالاخلاق تسخر منها. ان هذه الطبائع متناقضة أساساً وهي لا تقل كمالاً عن الناس الآخرين، وكل ما هنالك انها: اما انها ضائعة في التناقض الشيطاني أو يتم انقاذها فيما هو إلهي. وكثيراً ما ابتهجنا ان الساحرات والجنيات والغيلان وما شاكلها هي مخلوقات مشوهة ولا يمكن انكار ان كل انسان عندما يرى شخصاً مشوهاً يربط بينه وبين فكرة الفساد. ان الجور الهائل في ذلك الموقف يفضل بالأحرى قلبه والحياة هي التي أفسدتهم كما تفسد زوجة الأب الأولاد. ان يوضع الانسان أصلاً خارج العالم بالظروف الطبيعية أو التاريخية ليعد بداية ما هو شيطاني والذي لا يكون الفرد مسؤولاً عنه.

ويعلن كيركجرد في يومياته عدة مرات انه كان معزولاً

عن العالم بالطبيعة، بسبب طبيعته الناقصة، وبالظروف،بسبب اللعنة الملقاة على الأسرة. وبالنسبة للناحية الطبيعية يعلن كيركجرد بنفسه في يومياته انه لا يكاد يُعد إنساناً كاملاً. وقد وصفه بعض معاصريه كأحدب أو أشبه بالأحدب ووصفه آخرون بأن كتفيه مستديران أو ان ظهره منحن. وتكشف اللوحات التي رسمت له ايضاً على ان له جسمًا مشوهاً بالرغم من انه يصعب تحديد درجة الشذوذ في التكوين. وعلى اية حال، من المؤكد انه كان غير طبيعي واعجابه الشديد بمشكلات مسرحية ريتشارد الثالث مسألة يسهل فهمها. لكن النقطة الحيوية لا تزال تحتاج الى ازاحة الحجاب عنها.

ان الطبيعة النبيلة والفخورة يمكنها ان تطيق وتتحمل كل شيء لكن هناك شيئاً واحداً لا يمكنها أن تتحمله وهو الشفقة. هناك انتهاك فيها ينبت فيه من قبل قوة اعلى، فهو من ناحية لا يمكن ان يكون موضوعها. فاذا كان قد أثم فإنه يستطيع ان يتحمل العقاب دون قنوط ولكن ان يكون بلا خطيئة منذ ان كان في الرحم وان يكون ضحية الشفقة وان يكون رائحة طيبة في خياشيم هذه الشفقة فهذا هو ما لا يستطيع ان يطيقه .

هذه بطبيعة الحال ملاحظة عامة جرى التعبير عنها

بألمعية. ومع هذا يمكننا أن نسمح لأنفسنا أن نتذكر - استناداً لكيركجرد نفسه. ان خطيبته صرّحت خلال احدى المشاجرات المتكررة بينهما انها تقبلته بدافع من الشفقة.

مفهوم القلق

في حزيران (يونيو) ١٨٤٤ ظهر في غضون بضعة أيام كتابان هما « شذرات فلسفية » لجوهانز كليماكوس ، و«مفهوم القلق» لفيجيليوس هاوفمينيسس والكتاب الأول له علاقة وثيقة بمؤلف كيركجرد الفلسفي الرئيسي «حاشية غيرعلمية» الذي نشر عام ١٨٤٦ ، والذي سوف أناقشه فيما بعد.

يعد كتاب «مفهوم القلق» كتاباً تنبؤياً بشكل ليس له مثيل. وفيجيليوس هاوفمينيسس على حق تماماً عندما يعتقد ان مفهوم القلق لا تكاد السيكولوجيا ان تتناولـه. وفي ذلك الوقت كان هذا حقاً، وإن كان الأمر اختلف فيما بعد. ومن

المعروف في وقتنا ان سيكولوجيا «القلق» تلعب دوراً كبيراً وفريداً لا في مجال الطب العقلي فحسب مع وجود العديد من اشكال عصاب القلق، بل ايضاً في اشكال الأرق حيث القلق هو الأنفعال السائد في الحياة. وحتى في علم نفس الدين وفي التحليل النفسي وفي الوجودية يعد «القلق» ظاهرة محورية تسعى الى حل الغازها. ولقد كان القلق بالنسبة لكيركجرد ايضاً ظاهرة هامة وخاصة في شكل المخاوف الجنسية.

وللكتاب عنوان فرعي هو: «تروّ سيكولوجي بسيط موجه نحو المشكلة القطعية الخاصة بالخطيئة الأصلية». وهنا نجد في الحقيقة بحثين، أولاً: هناك بحث سيكولوجي عن القلق، وثانياً: هناك تفسير للقلق بالنسبة للعقيدة المسيحية عن السقوط والخطيئة الأولى. وللبحث قيمة مستقلة خاصة به بصرف النظر عما يعتقده الانسان في البحث الثاني وهو تفسير تأملي للغاية.

وبالرغم من أن كيركجرد لا يشير في أي موضع آخر لتجربته الخاصة بل يطبق ما يطلق عليه اصطلاحاً تعبير: «ملاحظة تجريبية» عن الآخرين، فإن الانسان يشعر دون شك ان الشخص الذي يتكلم لهو على علاقة صميمية

بتجربته الخاصة مع وجود اسرار القلق، وهو يفضح نفسه بمجرد ان يفرق بين الخوف والقلق اللذين يختلطان لدى عديد من علماء النفس في عصرنا. والقلق حسب رأي كيركجرد «مختلف تماماً عن الخوف والانفعالات المماثلة والتي لها ارتباط بموضوع محدد على حين أن القلق هو حقيقة الحرية على انها إمكانية الامكانية». وهذه العبرة الأخيرة ذات الطابع التجريدي تعني ان القلق له علاقة بذلك الذي يمكن للانسان ان يفعله. والانسان وهو مواجه بهذه «الامكانية» ينغمس في القلق ويعيش «كراهية تشاركية وتشاركاً كارهاً»، فالانسان ينجذب ويتنافر في الوقت نفسه. وعند كيركجرد، ان قلقاً بالامكانية المماثلة لهذا يسبق دائماً فعل «الخطيئة». وهناك فقرة شهيرة تأتي على هذا النحو:

«القلق قد يكون شبيهاً بالدوار. ومن يتسنَّ له ان تقع عيناه على الهاوية التي تفتح فاها يُصب بالدوار. لكن السبب في هذا يرجع الى عينيه بقدر ما يرجع الى الهاوية. فلنفرض انه لم يتطلع الى الاسفل. وهكذا فإن القلق هو دوار الحرية الذي يحدث عندما تتطلع الى إمكانيتها. وفي هذا الدوار تنخفض الحرية. والى أبعد من هذا لا يستطيع علم النفس ان يذهب كما أنه سوف لا يذهب الى أبعد من

هذا، ففي هذه اللحظة يتغير كل شيء وعندما ترتفع الحرية ثانية تتبين انها آثمة. وبين هاتين اللحظتين تقوم الوثبة التي لم يفسرها أي علم ولا يستطيع ان يفسّرها. وأنّ من تأثم عندما يكون قلقاً يكون آثماً للغاية على نحو ملتبس. ان القلق ضعف نسائي فيه يغمى على الحرية، فاذا تحدثنا بطريقة سيكولوجية قلنا ان السقوط في الاثم يحدث دائماً في حالة اغماء».

ما هو التفسير السيكولوجي لآدم الذي انتهك تحريم الله الأكل من شجرة المعرفة ومن ثم عمل الخطيئة للعالم؟ ان التفسير السيكولوجي - اللاهوتي المعتاد يفترض ان التحريم اغرى آدم وبعث فيه رغبة في انتهاكه. غير ان كيركجرد يتصور من جهة اخرى ان التحريم اثار في آدم القلق من انتهاكه، وانه انتهاكه في دوار القلق. «ان التحريم يجعله قلقاً لأن التحريم يثير فيه امكانية الحرية فيه، الامكانية الضارة (لارتكاب الاثم)».

ويرى كيركجرد - أبعد من هذا - ان خطيئة آدم موروثة كخطيئة أولية من قبل أبناء سلالته الذين خلال التقدم الدائم من جيل الى جيل يرتكبون آثاماً جديدة في القلق،وهذه الآثام تنحدر اكثر حتى ان كتلة الخطيئة الأصلية

تنمو وتنمو ومعها ينمو القلق حتى عصرنا. وفي هذه المرة لا يزال كيركجرد يؤكد تضامن الفرد مع الأسرة . «في كل لحظة يكون الفرد نفسه وأسرته» بل انه حتى ليقرر: «الجوهري في الوجود الانساني هو ان الانسان فرد وهو بأعتباره فرداً هو نفسه وأسرته كلها حتى ان الاسرة كلها تشارك في الفرد والفرد يشارك في الأسرة». وضد هذه الأرضية يمكن تبين لماذا كان (للزلزال الأكبر) أثر عنيف على كيركجرد الشاب. لقد فهم قلقه كقلق شخصي وكقلق الخطيئة الأولى.

ويتضح مما قد قيل ان (الشبقي) و (الجنسي) يلعبان دوراً هاماً في كتابات كيركجرد. ففي (مفهوم القلق) نجده أو بالأحرى قرينه المماثل فيجيليوس هاوفمينيسس، يناقش مسألة (ما هو جنسي) من وجهة نظر العقيدة المسيحية، فيما يتعلق بسقوط آدم في الخطيئة وتعاليم الخطيئة الأولى. والجنسية عند فيجيليوس هي «أقصى تطرف لما هو حسي». ويجري التأكيد على انه مع خطيئة آدم «تنفذ الخطيئة الى العالم ويظهر ما هو جنسي (بالمعنى المسيحي) الى حيز الوجود، والاثنان لا ينفصلان عن بعضهما». ولا يجري تأكيد ان الجنسية هي الخطيئة (أصلاً)، لكنها تصبح هكذا من خلال خطيئة آدم، وكما ان القلق من انتهاك التحريم هو

الأرضية النفسية للخطيئة فإن فكرة ما هو جنسي تترافق مع كل نسل آدم بالقلق. ان الانسان عند كيركجرد مكون من الجسم والنفس والروح، انه حيوان وانسان معاً. لكن الوجود الحقيقي للانسان هو (الروح) والروح تستشعر نفسها غريبة وقلقة داخل الجسم. ان المهمة «بالنسبة لما هو جنسي هو على نحو طبيعي» (هكذا يقول فيجيليوس) «اخضاعه لسلطة الروح».فهنا نجد كل المشكلات الاخلاقية المتعلقة بما هو جنسي وشبقي. وتحقق هذه المهمة هو «انتصار الحب في الانسان، حيث تقهر الروح لدرجة ان ما هو جنسي يجري تناسيه ولا يتم تذكره إلا في النسيان». وعندما يحدث هذا تنكشف الحسية كروح ويتم طرد القلق.

ان كلمات فيجيليوس هاوفمينيسس هي دون شك مطابقة لوجهة نظر كيركجرد. ان تطوره يتحرك في اتجاه (الروح الخالصة). ولكن تحت هذا التطور يمكن استخلاص علامات على التركيز الدقيق في حياته الشخصية. ولا يمكن التشكيك في ان كيركجرد كان نفسه يشعر بقلق من الجنس. واذا كان قد فقد (براءته) في شبابه المبكر - كما يفترض بعض الدارسين- فإن من المحتمل للغاية انه هو نفسه يعتقد ان القلق من الجنس - التعاطف الكاره والكراهية المتعاطفة - هو السبب الذي جعله يأثم. ونحن

نجده في موضع ما من اليوميات يكتب عن شبابه: «لقد كان القلق حقاً هو الذي افضى بي الى ان اشتط بعيداً». ونظرة كيركجرد لما هو جنسي -وهي نظرة توجهها المسيحية- تتميز الى حد كبير بمعاداة الحياة في فلسفته. ان إماتة الجنسية كانت (المهمة) او اذا عرضنا الأمر على نحو معتدل قلنا تحويلها الى حبّ روحي حيث تختفي تماماً. ان مفهوم القلق يتوج الاعمال المتأخرة التي يطرح فيها كيركجرد نظرة اكثر تزمتاً للمسيحية.

مراحل على طريق الحياة

بعد حوالى سنة من ظهور كتاب (مفهوم القلق) ظهر كتاب جديد مطول مجهول المؤلف هو كتاب (مراحل على طريق الحياة) وهو من حوالى ٤٠٠ صفحة وقد نشر في نيسان (ابريل) ١٨٤٥، وهو ينقسم الى ثلاثة أقسام تمثل على التعاقب مراحل الحياة الجمالية والاخلاقية والدينية.

والكتاب يبدأ بوصف طريف لحفلة يشترك فيها خمسة أقطاب نحن على معرفة بأربعة منهم من كل المؤلفات المجهولة المؤلف السابقة، وهم الشاب وقسطنطين قنسطنطينيوس وفيكتور ارميتا وجوهانز المُغْوي، وينضم اليهم شخص بلا اسم يشار اليه على انه مصمم الأزياء. ويصف

كيركجرد ببراعة فنية، الاطار المترف لهذه الحفلة الغريبة والتي خلالها يدلي كل من المشتركين الخمسة بحديث وهو يبحث تفسيره للحب والمرأة كما في محاورة (المأدبة) لأفلاطون(*) ومعظم الأحاديث العاب نارية تظهر الطرافة والمرح ولا يتبين بوضوح مقدار الجدية فيها، ويتعاقب فيها التناقض الظاهري الجريء والحقيقة النفاذة.

وبعد الافتتاحية نجد بحثاً عن «بعض التعليقات عن الزواج ضد الاعتراضات» والتي تدل على انها كتبتها شخصية أليفة اخرى هي القاضي ولهلم. انه يدافع مرة أخرى عن الزواج من الاعتراضات التي يثيرها الأقطاب الخمسة (الجماليون). وهكذا في القسمين الأولين من كتاب (المراحل) يرجع كيركجرد الى الموضوعات التي تناولها في (اما: . . أو) ولا شيء جديد بصفة اساسية هنا.

واكبر جزء فريد وقيم في كتاب (المراحل) هو الجزء الثالث وهو أطولها. وحتى العنوان مثير: «مذنب أم غير مذنب؟» مع عنوان فرعي. . «قصة معاناة:» تجربة سيكولوجية لفرانز تاسيتورنوس». وبمعنى ما من المعاني، هذا

(*) النص الأصلي يقول: كما في المأدبة اليونانية فأردنا زيادة التوضيح (المترجم).

استئناف لموضوع سبق تناوله ألا وهو قصة خطوبة كيركجرد التي كانت - كما رأينا - موضوع كتاب (الرُّجْعى). ولكن بينما كان كيركجرد قاصراً نفسه في ذلك الكتاب على فترة بداية الخطبة وهي فترة قصيرة من الزمن عندما كان محباً حقاً، نجد انه يعطي في «مذنب أم غير مذنب؟» تحليلاً واقعياً شاعرياً لسنة الخطبة على مداها بكل دوافعها ومراحلها المعقدة. وهنا نجد وصفاً سيكولوجياً شاملاً وتحليلاً لا يكاد يكون له مثيل في الأدب العالمي. والسرد على شكل مذكرات كتبها شخص اسمه كويدام. ويندهش الانسان مرة أخرى كيف استطاع كيركجرد ان يكون أميناً مع الواقع. وعلى سبيل المثال مذكرة الوداع التي بعث بها كيركجرد الى خطيبته عندما أراد أن يفصم الخطوبة وقد طبقت بنصها في هذا الكتاب (سبق ان أوردناها من قبل في الفصل عن مفهوم التهكم).

يبدأ كويدام بوصف طبيعته بأنها طبيعة (سوداوية) ويسبب هذا فإنه قبل أن يتقدم باقتراح قد تساءل بعناية وله مثل هذا الطبع ما اذا كان له الحق في الزواج. وقد انتهى الى أنه يمكنه ان يخاطر به. لقد تمكن تماماً من اخفاء سوداويته وراء قناع من المرح واخفاء سوداويته بحالة عكسية. وما من أحد يستطيع ان يلاحظ كآبته وكان هذا

مصدر اعتزازه، وجاء قراره ان من الأفضل أن يستمر في الحياة هكذا غير انه يفشل، فتدريجياً بدأ يدرك خلال فترة الخطوبة أنه من المستحيل عليه ان يحقق زواجاً بشكل مُرضٍ. أولاً لأنه يوجد اختلاف كبير في الفردية بين خطيبته ونفسه حتى انه سيصعب عليهما أن يلتقيا في فهم ديني متبادل. ثانياً، لأنه بسبب صنيعة الزواج عليه ان يكون صريحاً صراحة مطلقة مع زوجته. غير ان سوداويته تحتفظ بالاسرار التي لا يستطيع ان يكشفها لزوجته حتى لو كلفه هذا حياته. ومن ثم فهو مضطر الى فسخ خطوبته وهو يفعل هذا في الكتاب بالطريقة عينها كما فعل في الواقع بالرغم من ان خطيبته تقول ان في هذا موتها. فهل هو اذن مذنب ام غير مذنب؟ هذا التساؤل خاضع لبحث سيكولوجي واخلاقي نفاذ ومتعدد الجوانب يفصل الجزئيات بأكبر دقة. وها هو مثال قصير:

«اين يكمن ذنبي؟ فلأبدأ بما لست قادراً على تحقيقه. اين يقطع خطأي؟ أن اجعل انساناً تعساً. بأي شكل اجعله تعساً؟ في الامكانية، و حتى ان ضميري يثقل عليّ بسبب كلامها وبسبب الامكانية. فما هو عقابي؟ ان اتحمل الوعي بهذا. فما هو أملي؟ ان تخفف عناية رحمية في الواقع العقاب بمساعدتها. فماذا يقول عقلي عنها؟ انه لا يوجد بالضبط

امكانية ما هو أسوأ. فما هي نتيجة هذا بالنسبة لي؟ لا شيء مهما يكن. ان الإلزام الاخلاقي لا يمكن محوه بفرض عن الامكانية، بل أن يأخذ الانسان على عاتقه المسؤولية لأكثر الامكانيات تطرفاً».

ان قارىء هذا الكتاب المفرد يجد نفسه يتساءل باضطراب متزايد: من أي شيء تتكون (سوداوية) كويدام حقاً؟ وما هي أسبابها؟ لسوء الحظ ليس من الممكن أن نجد جواباً واضحاً وشافياً. هناك في الحقيقة اشارات عديدة ورموز كثيرة لكنها كلها مما يمكن تفسيرها بطرق عديدة. هذه الاشارات الكئيبة هي في الغالب من نفس الطابع الذي يتحدث عنه كيركجرد في موضع آخر ـ في يومياته ـ عن «الشوكة التي في اللحم» وهناك من الأسباب ما يدعو الى الاعتقاد بأن (سوداوية) كويدام هي الى حد كبير شوكة كيركجرد التي في اللحم.

لنقل بوضوح شديد: ان كيركجرد منذ بداية حياته قد ابْتُلِيَ (بشكوى رئيسية) لم يشرح طبيعتها اطلاقاً لكنه يسميها أحياناً احزاناً سوداوية وأحياناً اخرى يسميها شوكته التي في اللحم. ولقد اعتبر هذا مرضاً خطيراً له طبيعة مادية وروحية خالصة معاً. زيادة على ذلك اقتنع اقتناعاً شديداً

ان الانسان لا يصبح (سوداوياً) إلا بسبب وجود (ذنب). يضاف الى هذا ان الذنب القائم في اعماق سوداويته هو ذنب شخصي في جانب منه وخطيئة اولية ورثها من اسرته في الجانب الآخر. فإذا بحث الانسان عن تفسير اكثر تفصيلاً يرتد الانسان الى ما يسميه كيركجرد حياته المضادة للفعل أي الى ما قبل خطوبته ومن هناك الى ما يسميه ذنب الأسرة، حتى ان الخطيئة ـ حسب رأيه ـ تجثم على كل الاسرة. بكلمات اخرى يواجه الانسان (الزلزال الاكبر) الذي سبق ذكره في الفصل الخاص بهذا الزلزال.

تلك هي الموضوعات الغامضة التي تناولها في اكثر الأجزاء إثارة في «مذنب أم غير مذنب؟». اي (الاعتراضات) الستة التي تقطع سياق اليوميات أحياناً ودون مزيد من التفسير. وهذه الفقرات عناوينها على النحو التالي:

«اليأس الصامت ـ المنبوذ يتطلع الى نفسه ـ حلم سليمان ـ امكانية ـ درس يجب قراءته ـ يبوشا ندنزار». وهناك من الاسباب الى الاعتقاد ان هذه الفقرات المرضية المأسوية الانفعالية هي رموز تشبيهية وهي في ذروتها تكيفات اسطورية للصراعات في حياة كيركجرد الخاصة وحياة اسرته ومعظمها صراعات في حياة أبيه. ان الحقيقة والغموض

يختلطان هنا بشكل شغل في الغالب دارسي كيركجرد. ولن نورد هنا لاعطاء مذاق لهـذه الفقرات إلا الفقـرة الثالثـة وعنوانها (حلم سليمان) وهي لا تشغل سوى صفحتين في الأصل.

تقول الفقرة في البداية: «لو كان هنـاك انفعال من التعاطف فيجب ان يكون الخجل من أبي الانسان، من الشخص الذي يحبه الانسان اكثر من أي إنسـان آخر، ويميل اليه الانسان افضل من أي انسان آخر، ولكن أية نعمة افضل في التعاطف عن الجرأة على الحب كما يرغب الابن وأن يكون لديه فرح اضافي بالجرأة على ان يكون فخـوراً به لأنـه الشخص المختار، الشخص المميـز، قوة الجماعة، فخر الأمة. هذا هو حظك يا سليمان السعيد. ففي الشعب المختار كان ابن الملك، ابن ذلك الملك الذي كان بين الملوك الملك المختار.

«وهكذا عاش سليمان الصغير سعيداً مع النبي ناثان. ولكن ذات يوم زار أباه الملكي. وخلال الليل استيقظ على صوت حركات حيث يرقد أبوه. فتولاه الرعب وخشي ان وغداً على وشك قتل داود. فتسلل ورأى داود في حسرته وسمع صيحة اليأس من النفس النادمة، ولقد أغمي عليه

ورجع سليمان الصغير الى فراشه ورقد،لكنه حلم بأن أباه غير مقدس وأنه مرفوض من الله وان جلالته هي غضب الله عليه وانه يجب ان يرتدي زي الحكم كعقاب وانه محكوم عليه بأن يحكم ومقدر عليه ان يسمع شعبه يباركه، بينما الرأي السديد للرب يصدر سراً الحكم على الآثم، وكان الحلم نذيراً، الله ليس رب التقي بل رب العاصي، وان الخطيئة السرية هي السر الذي يفسر كل شيء.

«لقد اخذ سليمان يزداد حكمة، لكنه لم يصبح بطلاً، ولقد اصبح مفكراً، لكنه لم يصبح مصلياً، ولقد اصبح واعظاً لكنه لم يصبح مؤمناً، وهو يستطيع ان يساعد الكثيرين، لكنه لا يستطيع ان يساعد نفسه، ولقد اصبح حسّاساً، لكنه لم يصبح تائباً،ولقد انسحق لكنه لم ينهض لأن قوة ارادته قد أثقل عليها كثيراً بسبب كثرة المطالب الملقاة على قوة شاب. لقد تداعى خلال الحياة، وتقاذفته الحياة وهو قوي، قوة غير عادية، في الاشكال الساحرة للخيال واختراعاته العجيبة وهو عبقري في انكشاف تفكيره. غير ان وجوده قد تمزق وأصبح سليمان اشبه بالشخص العاجز الذي ليست لديه قدرة على الاحتفاظ بكيانه».

وهناك الكثير الذي يدل على ان لب «حلم سليمان»

يشير الى الواقع اي الى كيركجرد الشاب كما يمثله سليمان والى ابيه العجوز المعبود كما يمثله داود، وبنفس الطريقة فإن رد فعل سليمان على اكتشاف خطيئة داود يكشف بكلمات حادة رد الفعل (الأول) لكيركجرد الشاب عندما اقتفى آثار الملذات في الحياة حوالي عام ١٨٣٦، وأنه وطأ - حسب تعبيره - طريق الهلاك. والنقطة المحورية في (حلم سليمان) هي عبارة: «الخطيئة السرية هي السر الذي يشرح كل شيء». وهذه هي الفكرة المحورية ايضاً في (الزلزال الأكبر). والى هذا يمكننا ان نضيف الواقعة التافهة ان سورين كيركجرد قد شارك - لفترة من الفترات - اباه العجوز في حجرة نومه.

ان الحياة تفقد معناها بالنسبة لكويدام من وجهة النظر الجمالية ووجهة النظر الاخلاقية معاً. وهو في مرحلة انتقالية بين المرحلتين الاخلاقية والدينية واكبر خصائصها هي المعرفة اليقينية بأن الحياة ألم ومعاناة. ومن هنا نجد التحول ممكناً إلى المرحلة الدينية حيث يفهم الفرد نفسه وهو إزاء الله من خلال المعاناة.

حاشيــة غير علميــة

لقد لاحظنا ان كيركجرد نشر في حزيران (يونيو) ١٨٤٤ كتاباً صغيراً تجريدياً وتأملياً للغاية عنوانه «شذرات فلسفية» باسم مجهول هو جـوهانـز كليماكـوس. ولم يحظَ الكتاب إلا بالإهمال. ولكن في شباط (فبراير) ١٨٤٦ ظهر كتـاب ضخم في حوالى ٥٠٠ صفحة باسم جـوهـانـز كليماكوس وله عنوان مثـير: (خاتمـة لحاشيـة غير علميـة للشـذرات الفلسفية) والعنـوان الثانـوي: «تشكيل جـدلي مرضي مليء بـالمحاكـاة، مساهمـة وجوديـة بقلم جوهـانز كليماكوس». وهـذا الكتاب هـو ذروة وتتويـج للمؤلفات المجهولة بالنسبة للمواقف الفلسفية تجاه الحياة. وهو أيضاً

أهم كتبه العلمية، انه مؤلفه الرئيسي النظري، وهذا العمل هو المصدر الأكبر الذي استلهمته (الوجودية) في عصرنا.

وحتى في العنوان الفرعي الذي سبق أن أدرجناه نجد الكلمة السحرية: مساهمة (وجودية) بقلم جوهانز كليماكوس، والقارىء خلال الكتاب كله تستغرقه مصطلحات فلسفية جديدة حيث تُستخدم كلمتا (الوجود) و (الوجودي) بشكل دائم بأعتبارهما المفتاح للمسألة برمتها. ونحن نجد: اختيارات الوجود، تصادم الوجود، جدل الوجود، ظروف الوجود، شكل الوجود، تجربة الوجود، شفافية الوجود، أسرار الوجود، باطنية الوجود، مقولات الوجود، فن الوجود، تواصل الوجود، وسيط الوجود، الحد الأدنى للوجود، تناقضات الوجود، امكانية الوجود، تحول الوجود، مهام الوجود، مشكلات الوجود، مجالات الوجود، مشكلات الوجود، مراحل الوجود، وجهات نظر الوجود ، مصاعب الوجود، ونجد: الوجود الروحي، الوجود الطبيعي، الوجود الحقيقي، وجود الفكر، الوجود الانساني، الوجود الإلهي، الوجود المثالي، الوجود الشاعري، ظل الوجود، الوجود التافه، وجود المؤلف والآخرين.

كل هذه التعبيرات بالنسبة لكيركجرد حافلة بالمعنى، وقد استخدمتها الوجودية فيما بعد وبالاضافة الى هذا فقد صكت المصطلحات الوجودية. وهناك مفكر من أبرز الوجوديين المعاصرين وهو مارتن هيدجر على صواب عندما يكتب عن الوجودية وينسبها الى كيركجورد. ويقول جان ڤال أستاذ الفلسفة بالسوربون في كتابه : (تاريخ موجز للوجودية) : «ان كلمة الوجود بالمعنى الفلسفي الذي لها اليوم، استخدمها لأول مرة واكتشفها كيركجرد ».

فماذا فهم كيركجرد اذن من فلسفة الوجود؟ لسوء الحظ لا يمكن الجواب عن هذا السؤال بكلمات قليلة حيث اننا لا نجد في أي موضع في كتابات كيركجرد تعريفاً مختصراً. وكذلك لم يفعل الوجوديون المحدثون، ويصعب التعبير عن هذه المسألة المعقدة بكلمات قليلة. وهنا سنقتصر على توجيه الانتباه الى بعض الملامح البسيطة - والأساسية في الوقت نفسه - لوجودية كيركجرد.

ان مفهوم الوجود مألوف على نحو طبيعي في الحديث اليومي وفي المصطلح الفلسفي. وكل انسان يعرف ما المقصود بالقول ان شيئاً ما يوجد أو لا يوجد. وعلى أية حال فإن وجودية كيركجرد ليست معنية بالوجود بالمعنى العام للكلمة، بل هي معنية بصفة خاصة (بالوجود الانساني).

وفي هذا الاطار: ما المقصود أن «يوجد الانسان كإنسان؟» أو : ما هي الطرق التي «يمكن للانسان بها أن يوجد كإنسان؟».

وفي رأي كيركجرد فإن الوجود الانساني هو أولاً وقبل كل شيء وجود في الزمن مقابل الوجود في الأبدية. ان الانسان يولد ويعيش لفترة من الوقت ثم يموت. وفي ظل أفضل الظروف يعيش ثلاثة أجيال وعقداً من السنين. وبدون ان يريد الانسان فإنه (مدعو للوجود) ذي الديمومة المحدودة للغاية. ومع هذا: «ان توجد هو الاهتمام الأكبر للانسان».

وتظهر الامكانيات المختلفة كيف يستطيع أن يوجد الانسان كإنسان. ومهمة (المفكر الوجودي) أن ينظر في هذه المسائل وأن يصل الى فهم صميمي لها وأن يدلي (بتواصلات الوجود) عنها. ومثل هذا التواصل للوجود قد يكون من الطابع الشخصي جداً وقد يكون من النوع الفني. والعامل الحاسم هو أن المفكر الوجودي لا يتخذ فقط موقفاً عقلياً ملاحظاً ومؤكداً تجاه الأشكال الممكنة المختلفة للحياة، بل هو يكرّس نفسه بشدة وبحدة لهذه الامكانيات ، وهو نفسه يعيش بشدة وبحدة في ذلك (الشكل للوجود) الذي اختاره. وبهذا الموقف الانفعالي

القوي تجاه الوجود يفصل (المفكر الوجودي) نفسه عن (المفكر) بصفة عامة. فبينما المفكر هو مفكر موضوعي خالٍ من العواطف يتجاهل بقدر الامكان كل المشاعر، فإن المفكر الوجودي يفضل في الحقيقة أن ينغمر بنفسه في الجانب الانفعالي للوجود. ولهذا فإن المفكر الوجودي غالباً ما يُسمى (المفكر الذاتي) على حين أن المفكر بصفة عامة، العالم، يُسمى (المفكر الموضوعي.).

وغالباً ما يتكلم كيركجرد عن (المفكر الموضوعي) بسخرية شديدة وتهكم كبير عندما يشغل ذلك المفكر نفسه بمسائل الوجود، ولكن بشكل عقلاني كمجرد ملاحظ دون أن يعيش هو نفسه ما يفكر فيه. وبصفة خاصة يضع كيركجرد في ذهنه النمط الهيجلي في حرفة التفكير الذي ينظر الى الحياة من وجهة نظر تأملية ويكتب (مذهباً) عن ذلك يجب أن يعاش أولاً وقبل كل شيء. ويتحدث كيركجرد عن «تلك الدمية الصغيرة، الأستاذ الموجود، الذي يكتب المذهب». انه شخص متباعد، شخصية مؤسفة للأستاذ الذي يعيش على نحو خيالي في عالم التجريد وهو ينسى مطالب الوجود عليه. وعندما يفقد نفسه في عالم التأمل يستبعد أناه كما يستبعد الانسان عصاه. «عندما تقرأ قصة حياة مثل ذلك المفكر فإنك ترتجف أحياناً للفكرة المتعلقة

بمعنى أن يكون الانسان انساناً». انه يعيش في الشخص كمتحذلق قد يحقق زواجاً ناجحاً ظاهرياً لكنه لا يتعرف ولا يتحرك بقوة الحب ويكون زواجه لا شخصياً شأن تفكيره، وتكون حياته الشخصية دون شجن ودون صراعات المشاعر، ولا يكون إلا الشخص المتوسط القلق بشأن ما اذا كانت الجامعة ستمنحه أفضل حياة.

وهكذا نجد ان ما ساهم به كيركجرد في تأليفه شبه المجهول كمؤلف له هو ـ حسب مصطلحه ـ سلسلة من (تواصلات الوجود) على أساس (مجالات للوجود) خمسة وهي مجالات منفصلة: الجمالي، التهكمي، الأخلاقي، الفَكِه، الديني. ويتركز التنبيه في (حاشية غير علمية) على الشكل الديني للوجود الذي هو عند كيركجرد أعلاها، وهنا يطرح المسألة الأساسية عن (حقيقة) أو (زيف) فلسفة وجهات النظر للحياة. ما هو معيار حقيقة فلسفة للحياة؟ هل كل فلسفات الحياة متساوية على أساس واحد؟ أو انه من العبث أن نبحث حقيقة أو زيف فلسفة للحياة؟.

جواب كيركجرد عن هذا يمكن ادراجه بإيجاز. اذا كان المقصود (بالحقيقة) (الحقيقة الموضوعية) المكافئة للمفهوم العلمي للحقيقة اذن لن يتمكن الانسان من أن يقول أي شيء عن حقيقة فلسفة الحياة. ومن جهة اخرى اذا كان

الانسان يقصد (بالحقيقة) (الحقيقة الذاتيـة)، اذن سيكون هناك معنى في التساؤل عن الحقيقة، اي اذا كان الشخص المتسائل يعيش (في الحقيقة) بكليته فلسفته في الحياة. . فاذا فهمنا الأمر على هذا النحو فإن كل فلسفة للحياة يمكن أن تكون (حقيقية) بـالنسبة للشخص المـوجود. هـذه الفكرة الحاسمة ـ والبعيدة المدى في نتائجها ـ عن (الحقيقة الذاتية) في مجال الحياة قد استكشفها كيركجرد من قبل عندما كان شاباً للغاية. فكما ذكرنا من قبل في فصل (الزلزال الأكبر) يكتب في عام ١٨٣٥ : «اليست الحقيقة هي أن تعيش من أجل فكرة؟» وينتهي كتاب (أما. . . أو) بالكلمات التالية: «الحقيقة التي تنير هي وحدها الحقيقة بالنسبة لك». ولكن لم يحـدث إلاّ عندمـا كتب «حاشيـة غير علميـة» أن وصل كيركجرد الى الاستضاءة النهائية التي عبرها بأكبر دقة في الجملة الانغراقية: «الذاتية هي الحقيقة»، في مجال وجهة نظر الانسان للحياة. بكلمات أخرى: بالأضافة الى المفهوم العلمي العام عن الحقيقة ، الحقيقة (الموضوعية) الصادقة في العلم ، ادرج كيركجارد مفهوماً آخر للحقيقة هو الحقيقة (الذاتية) وهو مصطلح يدرجه ايضاً الوجوديون اليوم تحت مصطلح (المفهوم الوجودي للحقيقة) وهومفهوم صادق (لفلسفة الوجود).

فما هو المعيار لهذين المفهومين المختلفين للغاية عن الحقيقة؟. متى يكون الشيء حقيقياً موضوعياً ومتى يكون حقيقياً ذاتياً؟ ان يكون التصور (النظرية، الفكرة) حقيقياً بشكل موضوعي يعني - كما نعرف - ان التصور يتفق مع موضوعه. فالتصور القائل بأن الأرض مجال حقيقي موضوعياً اذا كانت الأرض (حقاً) مجالاً. وأما التصور حقيقياً ذاتياً فهو شيء مختلف. انه يعني ان الفرد الموجود الذي يتصور الفكرة داخلياً وبأنفعال يؤمن بأنها حقيقية، أو يختار أن يؤمن بأنها حقيقية بالرغم من أنه لا يعرف شيئاً عن هذا ولا يستطيع ان يعرف شيئاً عن هذا. بكلمات أخرى، ان المعيار (للحقيقة الذاتية) هو انفعالي وارادي. وقد عبّر كيركجرد عن هذا بأكبر إيجاز في الكلمات التالية: «من الناحية الموضوعية المسألة مسألة التعريفات الخاصة بالفكر، ومن الناحية الذاتية المسألة مسألة الباطنية». وهذا يعني بالمصطلح الأحداث: من الناحية الموضوعية المسألة مسألة ما هو معرفي، ومن الناحية الذاتية المسألة مسألة ما هو انفعالي وإرادي. وحتى يمكننا أن نفهم كيركجرد - والوجوديين المحدثين - من الأهمية بمكان أن نفهم هذا أو ان نفهم النتائج البعيدة المدى له. ولقد عبر كيركجرد عن نظرته الأساسية بدقة كبيرة بالكلمات التالية:

«عندما نبحث الحقيقة (موضوعياً) نتأمل بموضوعية في الحقيقة باعتبارها شيئاً نرتبط به. اننا لا نتأمل في العلاقة بل في واقعة أنها حقيقية، الحقيقة التي بها نرتبط: وعندما يكون هذا الذي بـه نرتبط يكـون هو الحقيقـة، الحقيقي، فإن الذات تكون في الحقيقة. وعندما نبحث الحقيقة (ذاتياً) فإننا نأمل بذاتية في علاقة الفرد، وعندما تكون (كيفيـة) هذه العلاقة في الحقيقة، يكون الفرد في الحقيقة حتى لو كان مرتبطاً بما هو ليس حقيقاً».

ويصور كيركجرد هذا التيار من التفكير بمثال رائع لا يمكن نسيانه:

«اذا ولج انسان يعيش في مسيحية العصور الوسطى بيت الرب، بيت الرب الحقيقي بالتصور الحقيقي عن الرب في معرفته ويصلي فإنه يصلي في اللاحقيقة، والانسان الذي يعيش في الأرض الوثنية ولكن يصلي بكل انفعال باللاتناهي بالرغم من أن نظرته مثبتة على الـوثن: فأين اذن تكمن الحقيقـة القصوى؟ ان الانسـاني يصلي في الحقيقـة للرب بالرغم من أنه يعبد الوثن، والآخر يصلي في اللاحقيقـة للرب الحقيقي ولهذا فهو يعبد في الحقيقة وثناً».

أو هو يطرح بإيجاز أشد: «موضوعاً (ما) يقال يجري تفصيله، وذاتياً: (كيف) يقال».

يكمن في قلب فلسفة كيركجرد عن الوجود مشكلة الوجود وهي مشكلة تخسف أهميتها كل المشكلات الأخرى والتي هي أيضاً المشكلة الرئيسية في أعظم أعماله: هل الوجود الانساني ينتهي بالموت أم أن هناك وجوداً بعد هذه الحياة؟ تقول المسيحية أن هناك حياة أخرى، وبكل يقين تعد بالخلاص الأبدي. وتنشأ (مشكلة أصلية للوجود) هنا بالمعنى الكيركجردي المميز للكلمة. أولاً، لما كانت مهتمة بالمدى الذي يكون عنده الوجود الانساني قاصراً على الحياة الزمانية القصيرة أم أنه يمكن تقبل وجود أبدي. ثانياً، لما كانت مشكلة حقيقية، فإننا لا نعرف شيئاً عن الوجود بعد الموت ونحن لا نعرف شيئاً عن حقيقة المسيحية. ثالثاً، لأن ما يختاره الانسان ليؤمن - في رأي كيركجرد - يحدد الموقف الكلي للفرد تجاه الحياة حتى أن الايمان أو عدم الايمان بخلاص أبدي «يبدل وجود الفرد بتمامه». وقد عرض جوهانز كليماكوس مشكلة الوجود هذه بالكلمات التالية:

«أنا، جوهانز كليماكوس، مواطن من مواطني هذه البلدة، أبلغ في الوقت الحالي ثلاثين عاماً، وأنا نوع عادي من البشر مثل معظمنا، في قدر طيب كبير يسمى الخلاص الأبدي، ولقد سمعت أن المسيحية تمنح الانسان هذه الطيبة والآن أحب أن أتساءل كيف أدخل في علاقة مع هذه

العقيدة. لقد سمعت مفكراً يقول: «أي فرض فريد، العبث المخيف في القرن التاسع عشر هذا المعنى بتاريخ العالم الجريء الذي يعطي أهمية لنفسه الصغيرة التعسة». لكنني أعرف نفسي متحررة من أية خطيئة في هذا المضمار، فلست أنا الذي بنفسه قد أبرز مثل هذا الفرض بل هي المسيحية التي ترغمني على هذا. انها تطرح تأكيداً مختلفاً على نفسي الصغيرة التعسة وعلى كل نفس هامة أخرى مماثلة، حيث تريد أن تباركه للأبد اذا كان سعيداً لكي يدخل فيها».

وينوه جوهانز كليماكوس بنورانية شديدة انه ليس من الممكن البرهنة على حقيقة المسيحية تاريخياً أو بالتأمل، فالمسيحية هي وسوف تظل دائمًا مسألة إيمان لا معرفة. بل والأكثر من هذا أن جوهانز كليماكوس يظهر ان مسألة الايمان هذه مليئة بالتناقضات الظاهرية وأشكال العبث. ويعبر كيركجرد في جملة تجريدية ومركزة عن (العبثية) الأساسية في الايمان المسيحي على النحو التالي:

«تتقرر البركة الخالدة للفرد خلال الزمن من خلال علاقته بشيء تاريخي يكون تاريخياً، بشكل أنه في مكونه يكون متمثلاً على نحو غير تاريخي بسبب طبيعته، ويجب أن يكون هكذا بسبب العبث».

وما يتضمنه هذا يجب قراءته بكتابات كيركجرد. وهنا لا يمكننا إلا أن نلاحظ أنه ما من مفكر ديني آخر قد فصل المعرفة عن الايمان بهذا القدر كما لا يوجد مفكر ديني آخر قد اكد الجانب الانغراقي في الايمان. وتبدو شروحات كيركجرد اشبه بتطوير لقول الأب ترتليان الشهير: «أنا أؤمن لأن هذا محال». ويستجيب كيركجرد بهذا للباطنية والعاطفة. ان الانسان لا يستطيع «ان يدخل في المسيحية» عن طريق الفكر أو العقل أو التأمل أو العلم. الأمر لا يتم إلا بالايمان، بالرغم من كل عقل. وعنده ان من يصل الى الايمان أو بالأحرى بالنسبة لمن (يختار) الايمان بهذه الطريقة فإن الايمان ينفذ اليه ويبدل وجود الفرد فالمسيحية عنده حقيقية ذاتياً، حقيقية وجودياً. وما يتمسك به كيركجرد بالنسبة لحقيقة الفلسفة المسيحية عن الحياة صادق بالمثل على كل فلسفات الحياة. الذاتية هي دائماً الحقيقة. لكن لا توجد فلسفة أخرى للحياة تحتوي على مثل هذه الفروض الانغراقية عن المسيحية.

ويحتوي الجزء الأخير من (حاشية غير علمية) على تحليل نفاذ للمجال الديني يتمايز فيه شكلان من أشكال الدين. الشكل الأول ذو طبيعة انسانية يسميه النزعة الدينية (أ) والدين اليوناني القديم هو مثال على هذا الشكل.

والشكل الثاني هو النزعة الدينية (ب) والذي يركز على طابع النزعة الدينية المسيحية بصفة خاصة. وعند كيركجرد ان المسيحية هي دين لاإنساني لأنها تقيم تعارضاً وتقابلاً بين الطبيعة الانسانية ومطالبها الطبيعية من أجل السعادة في هذه الحياة وتطلب موتاً بالنسبة للعالم وتركيزاً على الحياة بعد الموت. كل هذا بالأضافة الى (عبث) الوجود من وجهة النظر العقلية.

ولا نجد إلا أعمالاً قليلة في تاريخ الفلسفة تحتوي مثل هذا الثراء في الفكر كما نجد في (حاشية غير علمية). ويمكن ان يقال ان المشكلات ووجهات النظر التي يطرحها الكتاب بالرغم من الوجوديين المحدثين لم يتم استنفادها حتى يومنا هذا، كما لم يتم جلاؤها ايضا. والكتاب هو مصدر دائم للالهام.

هجوم مجلة (القرصان)

ان المؤلفات المجهولة المؤلف قد أثارت عاصفة كبرى في الدوائر الأدبية في ذلك الوقت في كوبنهاجن. وفي هذه الدوائر الأدبية كان معروفاً مَنْ هو المؤلف بالرغم من ان كيركجرد حافظ على السرية بحمية حتى عام ١٨٤٦. وفي خريف عام ١٨٤٥ قبل بضعة اشهر من نشر (حاشية غير علمية) كتب الناقد الالمعي ب. ل. موللر عرضاً للأعمال المجهولة المؤلف الموجودة. وقد أثار هذا نزاعاً عرف (بنزاع القرصان) ترك أثراً عميقاً - مهما يكن - على السنوات العشر الاخيرة في حياة كيركجرد القصيرة.

ان العرض الذي قدمه ب. ل. موللر يحتوي على

الكثير من المرح والاعجاب وخاصة بالنسبة لوصف كيركجرد للمرحلة الجمالية، غير ان الناقد اتخذ موقفاً متشككاً من كيركجرد بالنسبة للشخصية الاخلاقية والدينية،وسمح لنفسه ان يدلي ببعض الملاحظات ذات الطبيعة الشخصية والحادة. وقد كرّس ب. ل. موللر انتباهه اساساً للجزء الذي عنوانه «مذنب أم غير مذنب؟». لقد عرف دون شك ان هذا الكتاب هو تناول شاعري ـ واقعي لقصة خطوبة كيركجرد. ولقد كتب عن البطل الرئيسي وهو كويدام انه فقد كل ما يشكل شخصيته: الشعور والعقل والأرادة والاختيار والفعل والقوة العصبية والعضلية. وكل شيء جرى التضحية به من أجل الجدليات العقيمة. وقد دفع هذا كويدام الى ان يضع البطلة في موضع العذاب التجريبي حتى انه ليدهشنا أنها لم تجن أو لم تغرق نفسها. انه يقول:

«لو سمح للعقل السليم ان يخطو هنا فربما أمكن له ان يقول بتجرد وقح: اذا أردت أن تعتبر الحياة مشرحة ونفسك جثماناً، حسناً، مزّق نفسك ارباً كما تشاء، وطالما انك لا تؤذي الآخرين فإن البوليس لن يتدخل ويتدخل في شؤونك. ولكن ان يصطاد الانسان شخصاً آخر في نسيج عنكبوته ويشرّحه حياً أو يعذّب نفساً شيئاً فشيئاً باسم التجربة فهذا ما ليس مسموحاً به لك، إلا في حالة

الحشرات، ولكن أليست هذه الفكـرة مليئة بـالرعب وانها منافية للطبيعة الانسانية السليمة؟».

في الحقيقة اتخذ ب. ل. موللر وقفة اخلاقية ضد كيركجرد ولا بد ان الأمر ازدادت اثارته خاصة وان ب. ل. موللر كانت له سمعة انه يحيا حياة (جمالية) متحللة على غرار فهم كيركجرد للكلمة مثل دوان جوان. وفي التو كتب كيركجرد مقالاً مليئاً بالاحتقار ومشبعاً بالملاحظات التي تثير الشك حول ب. ل. موللر في الصحيفة اليومية البـارزة (الوطن). وفي نهاية المقال عبّر عن الرغبة التالية: «أواه لو اظهر في مجلة (القرصان)! من الصعب حقاً عـلى مؤلف مسكين ان يشار اليه على انه الشخصية الوحيدة في الأدب الدانيماركي الذي لم يشتم فيه».

لقد كانت (القرصان) مجلة اسبـوعية صغيـرة لكنها واسعة الانتشار أريد بها أن تسخر وغالباً بشكل فجّ من الشخصيات البارزة في ذلك الوقت. ولقد شنت (حملة من الرعب) ويقال في ذلك الوقت ان الناس كانت تخشى ان «يأتي اسمها في (القرصان)». كانت المجلة قد بدأت عام ١٨٤٠ على يد شاعر شاب واعدٌ هو مير جولد شميث الذي كان لا يزال يرأس تحريرها. وكان ب. ل. موللر مساهماً في

الكتابة فيها بين الحين والآخر. وكان جولد شميث الشاب مليئاً بالاعجاب بكيرجرد وفي مناسبات عديدة خلد اسم (فيكتور ارميتا) في صحيفته. ولا بد أن كيركجرد اعتقد انه بإبداء سخريته رسمياً من أن يُسَبَّ في (القرصان) قد وضع جولد شميث وب. ل. موللر في مأزق حرج. فماذا عليهما أن يفعلا؟.

غير ان جولد شميث استجاب لهذه السخرية، فمن كانون الثاني (يناير) ١٨٤٦ تفرغت مجلة (القرصان) لتسفيه كيركجرد كمؤلف وكفرد. وغالباً ما كانت تصاحب المقالات القصيرة بصور كاريكاتورية واستمر الهجوم فترة طويلة. وكان التأثير على كيركجرد شاملاً ويتضح هذا من عباراته العديدة في اليوميات من جولد شميث و (وقاحته) والتي يسميها ايضاً (الخسّة الأدبية). ولما كان شاباً للغاية فقد كان يمضي الكثير من الوقت متجولاً في الشوارع وكان يبدي غراماً شديداً بالتحدث مع الناس العاديين. وكان كريماً مع الشحاذين. وحسب عباراته فقد تغيرت ـ حسب تعبيراته ـ علاقاته مع «رجل الشارع». فقد اشتهر في المدينة. بأنه «المتمركز الذاتي شبه المجنون» وكان الأولاد في الطرقات يصيحون خلفه (اما. . . أو) وكانت المومسات يسمينه مؤلف (مذكرات مُغْوي البنات) وكان سهلاً على رسام مجلة

(القرصان) ان يسخر من مظهر كيركجرد فلم يكن منحني الكتفين فقط بل كان أيضاً شبه احدب منحني الظهر، وكانت ساقاه رفيعتين بشكل ملحوظ وكانت مشيته غريبة وغير منتظمة. والآن أصبح عذاباً بالنسبة له ان يمشي في الطريق. وتدريجياً بدأ يشعر بأنه اشبه «بالشهيد الذي يسخرون منه حتى الموت» ولم يقف أحد في صفه لكي يناضل ضد (القرصان) وتراجع «الحسد البارز المتزايد».

لقد بدأ كيركجرد يشعر بازدياد عزلته وازدادت علاقته بالمسيحية تكثيفاً في السنوات التالية. والشكل القاسي للمسيحية الذي تعلمه وهو طفل أصبح هو السائد لديه. لقد ماشى تجربة الشر في العالم بشكل شخصي من خلال مضايقة مجلة (القرصان) ، لقد بدأ يزداد شعوراً بأنه شهيد. وأصبح لحنه الأساسي لدرجة متزايدة هو «ان يفهم نفسه في المعاناة» ان المثال المسيحي يموت في العالم، أصبح شيئاً مؤقتاً. وحتى الاحداث القومية الكبرى مثل الحرب الدانيماركية الالمانية في الفترة من ١٨٤٨ ـ ١٨٥٠ ، لم تعد تعنيه: «انني لا اعرف سوى خطر واحد هو خطر التظاهر الديني». وكان دستور الحرية عام ١٨٤٩ غير هام بالنسبة له أيضاً. لقد كان محافظاً في السياسة وكان ممتلئاً سخرية تجاه المبدأ الديمقراطي الذي يرجع شرعية الاختيار الى أصوات

الغالبية في نظام الاقتراع. وهناك كتابان عميقان من هذه السنوات سوف نذكرهما ببعض التفاصيل.

المرض حتى الموت

في تموز (يوليو) ١٨٤٩ نشر كتاب «المرض حتى الموت» وكان في طبعته الأصلية لا يشغل إلا ١٣٦ صفحة ولكن في هذه الصفحات يتركز ثراء فريد من الملاحظات النفسية، ورصيد ضخم بـالمثـل من التـأمـلات الفلسفيـة واللاهوتية القائمة على هذه الملاحظات. وكتب كيركجرد في كانون اول (ديسمبر) ١٨٤٩ في اليوميات ان هذا الكتاب هو أصدق وأكمل مؤلفاته. وقد يتفق معه الكثيرون في هذا وخاصة انه يمتلىء بأكثر ملاحظاته عمقاً.

والموضوع الأساسي في الكتاب هو (اليأس). ففي رأي كيـركجرد ان اليـأس ظاهـرة ليست نـادرة الحـدوث بـل

بالعكس، كل فرد بصفة خاصة هو الى حد ما في حالة يأس. لكنه كثيراً ما يكون على غير وعي بيأسه. وهناك فصل في الكتاب يتناول عمومية اليأس وهـو على النحـو التالي:

«كما يقول الطبيب انه ربما لا يوجد شخص حتى في صحة كاملة فيجب ان يقول الانسان بالمثل انه لا يوجد مخلوق واحد لا يعيش في بعض اليأس، وليس لديه بعض من القلق والـزعـزعـة ونقص التنـاغم وبعض القلق من الأشياء المجهولة أو من شيء لا يجرؤ ان يتعرف عليه، قلق من بعض امكانيات الحياة أو قلق من نفسه حتى انه ، كما يقول الطبيب ان الانسان قد يستمر في الحياة والمرض في جسمه، فإن الانسان يعيش ومعه المرض، حاملاً معه مرض الروح وبلمحة سريعة عارضة، وبقلق يند عن التفسير حتى بالنسبة له، يجعله يدرك انه فيه. وعلى اية حال، لم يعش انسان ولا يوجد شخص حتى خارج العالم المسيحي ليس يائساً، ولا يوجد شخص في العالم المسيحي ليس هو حقاً مسيحياً، وطالما أنه ليس كذلك تماماً فإنه يكون الى حد ما في حالة يأس.

ربما تبدو هذه الملاحظة للكثيرين، بها انغراق ومبالغة

ونظرة هي بالأحرى كئيبة وباعثة على اليأس. ولكن ليس هناك شيء من هذا على الاطلاق. انها ليست كئيبة بل بالعكس انها تحاول ان تلقي الضوء على ما يتركه المرء عادة في اطار محدد من الغموض، وهي ليست باعثة على اليأس بل هي بالعكس ترفع الانسان لأنها تنظر الى كل انسان على انه ذات تتطلب منه ان تكون روحاً، كما أنها ليست مليئة بالانغراق، بل هي على العكس افتراض أساسي متماسك ومن ثم ليس فيها مبالغة أيضاً.

وبالعكس فإن النظرة العادية لليأس تقف عند المظهر، ومن ثم فهي نظرة مصطنعة، بل هي بالأحرى ليست نظرة على الاطلاق. انها تفترض ان كل شخص يجب ان يعرف على نحو طبيعي ما اذا كان في حالة يأس أم لا، ومن ثم فمن يقول انه كذلك يعد في حالة يأس، على حين من يظن انه ليس كذلك لا يعتبر في حالة يأس. ونتيجة لهذا يصبح اليأس ظاهرة اكثر ندرة بدل ان تكون ظاهرة عادية كاملة. ليس أمراً استثنائياً ان يكون في حالة يأس، كلا ، ان الاستثناء النادر، النادر جداً ألّا يكون الانسان في حالة يأس.

غير ان النظرة السوقية ليس لديها إلا فهم ضعيف

لليأس. فهذه النظرة ـ ضمن أشياء أخرى ـ (واذا ذكرنا شيئاً واحداً اذا فهم حقاً فسوف يجعل آلاف الناس بل ملايين الناس في الحقيقة تحت سطوة اليأس)ـ هذه النظرة كغض الطرف ، انها تغض الطرف كلية عن كون المرء ليس كذلك هو بالضبط شكل من اشكال اليأس، وهذا يعني ألا يصبح المرء على وعي بهذا. وبالمعنى الأكثر عمقاً الأمر نفسه مع النظرة السوقية في تحديد اليأس تماماً كما تحدد ما اذا كان الانسان مريضاً أم لا ـ بالمعنى الأعمقـ فالنظرة السوقية لديها فهم أقل بطبيعة الروح (التي بدونها لا يستطيع الانسان أن يبدأ في فهم اليأس) عن المرض والصحة. ويفترض عادة ان الشخص عندما لا يقرر بنفسه انه مريض يكون على ما يرام ولا نذكر عندما يقول هو نفسه بالعقل انه على ما يرام. والطبيب من جهة اخرى يعتبر المرض على نحو مختلف. ولماذا؟ لأن الطبيب لديه تصور محدد ومتطور عن الصحة واستناداً الى هذا يختبر حالة الشخص. ان الطبيب يعرف انه كما انه يوجد مرض يكون مجرد خيال، كذلك توجد حالة ايضاً للصحة، ولهذا فإنه في الحالة الاخيرة يطبق أولاً الوسيلة التي تجعل المريض يكشف عن نفسه. والطبيب ـ لأنه طبيب (ولهذا فإنه انسان كفء)ـ يضع ثقة عمياء فيما يؤكده له مريضه عن صحته.

فاذا كان كذلك، وهو أن ما يقوله كل فرد عن صحته سواء كان على ما يرام ام كان مريضاً، وسواء كان يعاني أم لا وهكذا، ويجب الاعتماد على أقواله كلية اذن فإن الطبيب وهم ولا حاجة اليـه. ان من الضروري للطبيب لا أن يصف العلاجات فحسب بل أن يعرف أولاً وقبل كل شيء ما اذا كان الشخص المفروض فيه انه مريض مريضا حقاً، أو ما اذا كان الشخص المفروض فيه أنه على ما يرام ربما يكون في الحقيقة مريضاً. ان طبيب النفوس هو في الوضع نفسه بالنسبة لليأس. انه يعرف ماهية اليأس، انه يعرفه ومن ثم فهو ليس قانعاً عندما يعلن الشخص انه ليس في حالة يأس وهو ليس قانعاً عندما يعلن الشخص انه في حالة يأس. فبمعنى ما من المعاني الناس ليسوا دائماً في حالة يأس حتى لو قالوا انهم كذلك. فالانسان قد يتظاهر باليأس وقد يخطىء الانسان ويضفي الغموض على اليأس الذي هو حالة من حالات الروح، فيخلط بينه وبين جميع انواع الانهيار المؤقت أو الاسى الذي يولي دون ان يصبح يأساً. وعلى اية حال، فإن طبيب الروح ينـظر في هذا حقـاً، ايضاً، كـأشكال لليأس، وهو يرى ان هذا محبة، لكن هذه المحبة نفسها هي اليأس، وهو يرى تماماً ان هذا هو الانهيار ـ وهكذا ، وليس هذا بذي اهمية كبرى ـ ولكن ألا يكون هذا ولا

سوف يكون بذي اهمية، هو بالضبط يأس».

وعند كيركجرد اشكال مختلفة عديدة لليأس. وهو بمعرفته الصميمية بالنفس يفرزها ويقرر دواعيها المفترضة. ويمكن ان يقال باللغة العلمية الحديثة ان هذا الكتاب هو الى حد معين سيكولوجي وصفي. ولكن زيادة على ذلك، هو ايضاً سيكولوجي علاجي، وهذا هو اكبر شيء حيوي في النهاية. ان كيركجرد يفسّر اليأس على انه «مرض الروح، مرض النفس». وهو يتساءل: كيف يمكن علاج هذا المرض؟ أي بتعبير آخر: كيف يمكن محو هذا المرض؟ ولكن يمكن فهم التفكير الاستدلالي في هذا الكتاب المعقد للغاية المليء بالجدل التأملي والفلسفة أن من الضروري الكشف عن بعض فروض كيركجرد الرئيسية.

ان سورين كيركجرد انسان (روحاني) أو بدقة أكبر انه روحاني (مزدوج) فعنده ان الانسان «مركب من الجسم والروح». و (الروح) عنده متطابقة مع (النفس). ان تمتلك نفساً، ان تكون نفساً هما أهم الخصائص المميزة واكبر شيء له دلالة عن الانسان. وتلك النفس التي لدى كل انسان منفصل هي نفس عينية، هي نفس فردية، هي نفس خاصة به. ومن الصعب ان نجد شخصين متشابهين تماماً عقلياً وجسمانياً. ولكن بالرغم من هذه الاختلافات، فإنه

ينطبق على كل فرد ان نفسه قد (أعطيت) له باعتبارها (مهمة) ويقوم هذا في (تقبل) و (تطوير) النفس المعطاة.

فما المقصود بأن النفس التي لدى الانسان قد أعطيت له؟ عن هذا التساؤل يعطي (الانسان الطبيعي) و(المسيحي) جوابين مختلفين. والمقصود بالانسان الطبيعي هو الانسان الذي وهو في طريق الحياة يظل حيا بالتجربة والتدبر العقلي على اساس التجربة. والفيلسوف ذو النزعة الانسانية هو مثال على الانسان الطبيعي الذي يقيم الى حد ما تأملاته عن الحياة على اساس التجربة. أما المسيحي فهو يختلف اختلافاً جذرياً عن الانسان الطبيعي. وأساس نظرته في الحياة تقوم على الكشف الوارد في الكتاب المقدس. وقد يقال ان النفس تُعطى للانسان الطبيعي من جانب الطبيعة. وهي تُعطى للمسيحي من جانب الله. وهاتان النظرتان المختلفتان قد تفضيان الى نتائج هامة بالنسبة لليأس. ومقابل الفرق بين الانسان الطبيعي والمسيحي ينقسم كتاب «من المرض حتى الموت» الى قسمين: القسم الأول يتناول اساساً اليأس عند الانسان الطبيعي. والقسم الثاني: يتناول اليأس عند المسيحي.

ان (الصيغة الاساسية لليأس كله) هي نفسها بالنسبة

للانسان الطبيعي والمسيحي. وهذه الصيغة هي على النحو التالي: (اليأس هو اليأس تجاه نفس الانسان، تجاه ذاته) وهكذا يربط كيركجرد ربطاً وثيقاً بين (النفس واليأس). للوهلة الأولى قد يبدو هذا داعياً للدهشة. ان من ييأس يبدو انه «على نحو طبيعي» يائس من (شيء ما) بمعنى (شيء ما خارج نفسه). ان الفتاة اليائسة بسبب الحب تيأس بشأن فقدان محبوبها، لأنه مات أو كان غير مخلص لها. هذا هو ما يبدو للوهلة الأولى. لكن هذه ليست إلا بداية اليأس، انه اشبه بالطبيب عندما يقول عن المرض انه لم يكشف عن نفسه بعد. والشيء التالي هو اليأس المعلن الذي يسمى ايضاً اليأس الحقيقي الذي يكشف نفسه عند التأمل الأوثق على انه يتألف من اليأس (تجاه ذات الانسان). فالفتاة التي تعاني من فقدان حبيبها تيأس تجاه ذاتها، والأمر يصبح بالنسبة لها طاعوناً لكونها أصبحت نفساً (بدونه). ان النفس التي كان يجب ان تكون كنزها قد اصبحت خواء لا يطاق عندما مات (هو) أو أصبحت مقززة لها عندما تذكرها بأنها خُدعت.

فما المقصود بأن يتقبل الانسان نفسه؟ بإيجاز: خلال فترة الشباب يكتسب الفرد وعياً شعورياً واضحاً معقولاً بنفسه وخصائصها، ومن هنا تظهر معرفة بالذات واضحة

ومعقولة بمعنى فهم النفس. وهو يتقبل هذه النفس عندما يتضح له ان هذه النفس هي نفسه (الخاصة به) وانه خلال مسلك حياته مسؤول عن نفسه. هذا الاعتبار واضح بذاته عند كيركجرد وواضح بذاته ايضاً بالنسبة له ان الـوعي الذاتي، بمعنى الوعي بـالذات أو النفس مصـاحب بـوعي بالنفس وقد أعطيت له (كمهمة) أو (كرسالة). المسـألة مسألة تطوير النفس المعطاة.

ولسوء الحظ ان كيركجرد لم يعط في أي موضع آخر بياناً مذهبياً بما يفهمه بـالضبط من تطويـر النفس والذي يسميه ايضاً تطور النفس. ولكننا نجد في مواضع عديدة انه يتناول المسألة عابراً، وواضح انه صاغ آراء محددة ومؤكدة عن موضوع تطور النفس كما فعل بالنسبة لكل شيء آخر. وبصفة عامة يمكن القول ان هناك عند كيركجرد (قوانين) محددة لتطور النفس. فاذا لم نراعها فإن اليأس ينطلق. وهو عنده شعار هام عن هذا، يجب ألا نستخف بالنفس.

أولاً، هناك القوانين الاخلاقية. لقد اصبح كيركجرد مقتنعاً منذ البداية وبشدة ان «ما هو أخلاقي يلقي بثقله على الانسان». واذا تحطمت قوانين الاخلاق فإن اليـأس من الندم سرعان ما ينشأ . والنفس الصحية عند كيركجرد هي

أولاً وقبل كل شيء نفس اخلاقية. وعند المسيحي ترجع قوانين الاخلاق الى ارادة الرب. والوصايا العشر هي اكبر الأمثلة على القوانين الاخلاقية التي ترجع الى الدين. ومثل هذا الرجوع الديني لا يوجد عند الانسان الطبيعي، ولكن من الواضح ان كيركجرد يؤمن بالفعل ان هناك قوانين اخلاقية محددة للانسان الطبيعي وهي تكون الاخلاق الانسانية.

ثانياً: هناك قوانين اخرى لتطور النفس بجانب قوانين الاخلاق والدين، وهي قد تسمى بالقوانين الصورية. وهي لا تلقي بتحريم محدد أو وصية مثل الاخلاق والدين، بل هي تهتم بالحالة التي تمارس بها النفس رسالتها ومهامها. هذه القوانين الصورية ليست بذات اهمية كبرى في كتاب (المرض حتى الموت). ولكن هناك ملاحظة من بين ملاحظات كيركجرد الفكرية المثيرة يجب ادراكها بإيجاز، كشهادة على كيفية انشغاله تماماً بموضوع تطور النفس حتى خارج مجالي الاخلاق والدين.

الانسان عند كيركجرد اذا تحدثنا سيكولوجياً، هو كائن يملك الفهم والشعور والأرادة. وبمعزل عن التطور الخلقي والديني للنفس هناك ايضاً تطور للنفس في المجالات

الثلاث السابقة. غير ان هذا التطور قد يكون في الاتجاه الخطأ ويفضي الى ما يسميه كيركجرد الشخص (المتعصب). أو الشخص (اللاإنساني).

فماذا عن تطور الفهم؟ مما يتم النصح به ضرورة زيادة معرفة الانسان وفهمه. كل انسان لا بد أن يتفق حول هذه المسألة فالمعرفة تُقدر تقديراً رائعاً، وليست المعرفة العملية المفيدة وحدها بل ايضاً المعرفة النظرية الخالصة. ومع هذا فإن اهمية الفهم عند كيركجرد - عندما يقال كل شيء - يجب ان تقوم على هذا : كلما ازداد فهم النفس ازداد فهمها لنفسها بالمثل. وكما جاء من قبل، ان الهدف الاساسي في الحياة هو تطور (النفس). ومن ثم يجب ان نعلي من شأن الحقيقة القائلة ان الدرجة المرتفعة للفهم متماثلة مع درجة التحقق الذاتي. «فاذا لم يحدث هذا يصبح الفهم كلما زاد نوعاً من الفهم اللاإنساني ونتيجة لهذا تُسَخِر النفس الانسانية مثل الناس المسخرين في بناء الاهرامات». وهنا يشار الى بناء العالم للعلوم. ان العالم يمكن ان يصبح (متعصباً) عندما يفقد نفسه اكثر خلال عمله للفهم.

فماذا بشأن تطوير الشعور؟ مما يتم النصح به أيضاً هو زيادة وتطوير حساسية الانسان. غير ان هـذا التطور

ايضاً يمكن ان يصبح لاإنسانياً ومتعصباً عندما تمتد الحساسية لتشمل المزيد من المجالات. ومن ثم قد يحدث للنفس ان تصبح اكثر (ضعفاً) . الحساسية يمكن «ان تصبح نوعاً من الحساسية التجريدية والتي لا تمت لأي شخص بل تصبح مشاركة في مصير تجريد من التجريدات، في الانسانية (المجردة) على سبيل المثال. وكما ان الشخص المصاب بالروماتيزم ليس متحكماً في مشاعره الجسمانية لأنها في قبضة الريح والطقس، حتى انه يشعر رغماً عنه في داخله بأي تغير في درجة الحرارة وما الى ذلك، فالأمر كذلك مع الشخص الذي أصبحت مشاعره متعصبة بشكل يجعله لامتناهياً، بل بالطريقة التي تجعل لديه مزيداً من ان يصبح نفسه لأنه يزداد فقداناً لنفسه».

فماذا عن تطور الأرادة؟ يعزو كيركجرد الاهمية القصوى لإرادة النفس. وتطويرها. «كلما زادت الأرادة زادت النفس. والشخص الذي بلا أرادة على الاطلاق، لا يكون نفساً، لكن كلما زادت أرادته ازداد وعيه الذاتي بالمثل». ان الوعي الذاتي هنا يعني الوعي بالنفس. ان الأرادة تعبر عن نفسها في الهدف والقرار. غير ان الأرادة تستطيع ايضاً ان تصبح متعصبة حتى ان النفس تضعف ويزداد ضعفها. وهذا يحدث عندما يصبح هدف الأرادة

بشأن الهدف والاختيار تجريدياً ونائياً. حينئذٍ تفقد الرسالة طابعها العيني والقريب. ويبدو الأمر كما لو كانت النفس تفقد قبضتها على الرسالة أو ذلك الجانب من الرسالة أو المهمة، الذي يجب ان يؤدى الآن في التو في هذا اليوم نفسه وهذه الساعة نفسها وهذه اللحظة نفسها.

ويكتب كيركجرد، ملخصاً الأمر: «ولكن الآن قد اصبح الشخص، متعصباً على هذا النحو، ومن ثم يكون في حالة اليأس فإنه يستطيع ان يستمر في الحياة، ويكون انساناً ظاهرياً مشغولاً بالأشياء الوقتية ويستطيع ان يتزوج وينجب اطفالاً ويكرّم ويصبح انساناً بارزاً، وربما تسير الأمور دون ان يلاحظ احد انه فاقد للنفس بأعمق ما في الكلمة من معنى. والعالم لا يعبأ كثيراً بمثل هذه الأشياء، فالنفس هي شيء نادر ما يجري التساؤل عنه في العالم، وهي شيء يكون من الخطر للغاية السماح للانسان بأن يشعر بأن له نفساً. والخطر الأكبر وهو فقدان الانسان لنفسه يمكن ان يفوت في العالم بهدوء كما لو لم يكن شيء قد حدث. وليس هناك فقدان آخر يمكن ان يفوت بهدوء بمثل هذه الطريقة، فكل فقدان آخر مثل الذراع أو الساق أو خمسة دولارات أو زوجة الخ. . هذا هو ما تتم ملاحظته».

ونعود الى نقطة الانطلاق والى لب المسألة: اليأس هو

اليـأس على النفس، اليـأس على ذات الانسـان. وهـذه الصيغة الاساسية عند كيركجرد يمكن تفصيلها فنقول أن اليأس هو اما (الرغبة بيأس في الا يكون الانسان نفسه أو الرغبة بيـأس ان يكون الانسـان نفسه). هـذا التصنيف (الجدلي) المتناقض هو بطبيعة الحال تجريدي للغاية، لكن كيركجرد يعرف هنا ـ كما هو شأنه دائمًا ـ كيف يملأ فروقه التجريدية بالفهم الانساني العيني والفعّال.

ان الشخص الذي (لا) يريد ان يصبح نفسه هو شخص لا يتقبل ولا يريد ان يمتلك النفس التي أُعطيت له ويطورها، انه يريد ان يهرب من هذه النفس، انه يريد نفساً اخرى، نفساً جديدة. وهكذا ربما يصور لنفسه هذه النفس الجـديدة والأخـرى التي يريـدها، انها نفس «قـد اخترعها بنفسه» حتى انه لا يفهم أو انه يتصرف بـوعي كامل متحدياً القانون الاساسي لتطور النفس، وهو ان مهمته هي بالضبط قبول النفس المعطاة له ومعرفتها وتطويرهـا. والنتيجة هي اليأس. فالشخص الذي يشبه هذا الانسان يصبح غريباً بالنسبة لنفسه وفي النهاية قد لا يكون لديه يأس آخر سوى «التخلص من نفسه ويصبح لا شيء». حينئذٍ يكون على شفا الانتحار. وكيركجرد يسمي الناس الذين لا يريدون ان يكونوا انفسهم الضعفاء. واليأس الناتج

يسميه (يأس الضعف).

والتعريف الثاني هو.. ان تريد بيأس (ان تكون) نفسك. ان الكلمات مثيرة لأن الرسالة كانت بالضبط تملك النفس المعطاة. وعلى اية حال، المسألة بسيطة تماماً عندما تنتقل من المجرد الى العيني. والنقطة هنا هي ان النفس التي تعطى للانسان هي دائمًا نفس ناقصة نفس (في حالة جنين) تحتاج الى تطويرها. والشخص الذي يريد بيأس ان يصبح نفسه، يفهمه كيركجرد انه شخص يريد ان يؤكد ويواصل من خلال نفسه المعطاة، بالضبط كما هي معطاة له بالرغم من اشكال نقص هذه النفس. وهذه حالة تدل على الطبيعة المتحدية. ويمكن ان يقال ان هذا الشخص يتقبل نفسه المعطاة لكنه لا يتقبل المطالب لتطوير النفس. ان النفس المعطاة الناقصة تشق طريقها. وكيركجرد يسمي هذا النمط من اليأس (يأس التحدي).

ويصف هذا بإيجاز التعريفين الخاصين لليأس. وزيادة على ذلك يشير كيركجرد الى انه عند الفحص الأدق يجب اعتبارهما ضدين نسبيين، وان التعريف الخاص بألا يريد الانسان بيأس-نفسه - هو في النهاية أعمقها.

وفي حالات عديدة نجد ان الانسان الطبيعي

والمسيحي قد تكون لهما الأسس نفسها لليأس. وعلى أية حال، فإن التحليل الأدق يكشف عن انه في مثل هذه الحالات من اليأس فإنه مختلف مع هذا عند المسيحي عن الشخص الطبيعي. وفي حالات أخرى فإن اسس اليأس أو اللايأس تتباين تبايناً شديداً نتيجة النظرة المنحرفة عن الحياة لدى هذين الشخصين. والمثال الصارخ على هذا هو الموقف تجاه الموت.

هناك انواع وقتية عديدة من المعاناة: المسغبة، الحاجة، المرض، البؤس، الأسى، المصاعب، اشكال العذاب، الاضطرابات الذهنية، الأسف، الحزن. كل هذه الامور يمكن ان تكون موضع اليأس لدى الانسان الطبيعي والى هذه الأمور يمكن ان نضيف فكرة الموت. وكقاعدة عامة فإن الانسان الطبيعي يؤمن بأن الحياة مع الموت تنتهي. «اذا تكلمنا من الناحية الانسانية» الموت هو آخر الأشياء. وطالما ان هناك حياة هناك أمل. هكذا يفكر الانسان الطبيعي، وكقاعدة عامة يعد الموت أكبر الشرور بالنسبة له.

والمسيحي - أيضاً - أليف بالتأكيد بالمعاناة الوقتية. لكنها تتخذ عنده طابعاً مغايراً عما لدى الانسان الطبيعي.

فاذا (تكلمنا مسيحياً) ليس الموت هو نهاية كل شيء. الموت ليس إلا حادثاً صغيراً داخل ما هو أبدي، انه حياة أبدية. اذا تحدثنا على نحو مسيحي فإن هناك في الموت مزيداً من الأمل اللامتناهي اكثر مما في الحياة في ذروة صحتها وقوتها، والمعاناة الوقتية ليست شيئاً إزاء فكرة الخلود. هـذه هي الطريقة التي يفكر بها المسيحي.

ولهذا فإن الانسان الطبيعي والمسيحي لا يفهم كل منهما الآخر حول هذه المسألة كما كان الأمر بـالنسبة لليـأس. بالنسبة للمسيحي، الأشياء التي يعدّها الانسان الـطبيعي اشكال رعب في الحياة هي نكتة. ان العلاقة بين النمطين هي مثل التي بين الطفل والرجل. ان الأشياء التي تسبب الرعب للطفل لا تعد شيئاً بالنسبة للانسان. ان الطفل لا يدري ما هو الرعب الحقيقي اما الرجل فهو يعرف هذا وهذا هو ما يرعبه، ان المسيحي هو الانسان الذي يعرف شيئاً (مرعباً) (لا) يعرفه الانسان العادي. وهذا يمكن ان يلقي بالمسيحي في هوة من اليأس العميق والذي يسميه كيركجرد من المرض الى الموت. وهذا هو مـا يردنـا الى العنوان الغريب للكتاب.

عندما نتحدث عن المرض الذي يفضي الى الموت في

الحديث العادي نقصد مرضاً ينتهي بالموت. والمرض الذي يفضي الى الموت مرادف للمرض المميت. وفي قصة انبعاث اليعازر من بين الموتى يستخدم التعبير بهذا المعنى ، لكن يمكن ان يُفهم ايضاً على أن له معنى آخر اكثر عمقاً. «فلما سمع يسوع قال هذا المرض ليس للموت» (انجيل يوحنا: ١١ / ٤) هكذا يقول المسيح عندما يتلقى رسالة ان اليعازر راقد مريضاً في بيثاني. ومع هذا فإن اليعازر مات بالفعل. وعندما أخطأ التلاميذ في فهم ما قاله المسيح فيما بعد: «قال هذا وبعد ذلك قال لهم اليعازر حبيبنا قد نام لكني أذهب لأوقظه» (اصحاح ١١ / ١١) قال لهم المسيح صراحة: «فقال لهم يسوع حينئذٍ علانية اليعازر مات» (١١ / ١١).

وربما أضاف كيركجرد أنه عندما وصل يسوع الى بيثاني ان اليعازر كان راقداً في القبر لمدة أربعة أيام وأنه بدأ ينتن (١١ / ٣٩).

لهذا (كان) اليعازر ميتاً، ومع هذا فإن المرض لم يكن للموت. ان قيامه يجب ان يفهم على انه معجزة. ولكن حتى لو كان المسيح (لم) يبعث اليعازر فإن كيركجرد يتساءل أليس يظل حقيقياً ان هذا المرض، الموت نفسه، ليس للموت؟ ان المسيح (موجود) وألا يعني هذا ان هذا

المرض ليس للموت؟» كيف كان يمكن ان تتم مساعدة اليعازر على ان يقوم من الموت اذا كان في النهاية سيظل ميتاً - كيف يمكن ان تتم مساعدة اليعازر اذا لم يكن (هو) موجوداً، (هو) الذي هو البعث والحياة لكل من يؤمن به!» ومع هذا فبالنسبة للمسيحي لا تزال هناك حالة يمكن ان تسمى المرض للموت. انه لا يسبب الموت للجسم لأنه مرض في الروح ، في النفس. هذا المرض هو أعمق حالة لليأس (ان تفوق المؤمن على الانسان الطبيعي قائم في انه على علم بهذا المرض، والشفاء منه هو نعمة المؤمن). وبهذا نصل الى الأطروحة المحورية للكتاب.

ان الفرق الحاسم بين الانسان الطبيعي و المؤمن هو ان حياة المؤمن هي حياة (لله) أي (ازاء الله) وهكذا فإن نفس المؤمن هي نفس ازاء الله، ومع هذا الشيء الجديد في كيفيته يرتفع على نظرة الانسان الطبيعي (الملحد) للحياة وموقفه من الحياة. وعلى سبيل المثال، ان ما هو (ذنب) بالنسبة للانسان الطبيعي يصبح عند المؤمن (خطيئة). والقسم الثاني من الكتاب يبدأ بالكلمات التالية: «الخطيئة هي: (ازاء الله أو وجود تصور لله في اليأس في الرغبة بيأس ألا يكون الانسان نفسه أو الرغبة بيأس في ان يكون الانسان نفسه). الخطيئة هي امكانية اليأس. والنقطة

التي عندها التركيز هي: «ازاء» الله أو ان تصور الله ماثل، وأن ما يجعل الخطيئة جدلية وأخلاقية ودينيـة وما يسميـه المشرّعون اليأس (على حقيقته) هو تصور الله».

لقد رأينا أن الخطيئة هي امكانية اليأس وهذا عند كيركجرد يأس مسيحي بصفة خاصة. انه يأس لا يعرفه الانسان الطبيعي. انه بالنسبة للمسيحي هو المرض للموت، لا بالنسبة للجسم بل بالنسبة للنفس. انه في ذروة اشكاله هلاك للنفس.

هـذا المرض للمـوت لا يمكن شفاؤه إلا بـطريقـة واحدة. من خلال (الايمان). وصيغة الايمـان تتحدد عـلى النحو التالي: (الايمان هو: أن تكون النفس ذاتها والرغبة في أن تكـــون ذاتهـا تتـــأسس من الله بشكــل واضــــح) بمصطلحات صريحة: ان أمراض اليأس يمكن شفاؤها في المسيحي عندما تصل نفسه الى تفاهم مع الله، وبمصطلحات سامية يمكن القول: عندما تتأسس نفسه بشكل واضح في الله. هذه هي البركة بالنسبة للمسيحي. ولهذا فإن عكس الوجود في اليأس هو ان يكون لدينا الايمان.

وعلى أية حال فإن هناك صعوبة في نظر كيركجرد

الحصول على الايمـان المسيحي. ان عقيدة المسيحيـة على عكس العقل لدى الانسان الطبيعي وطـريقة كيـركجرد المعتدلة في التعبير عن هذا هو أن المسيحية لا بد أن تبدو في نظر الانسان الطبيعي غير معقولة. وبتعبير أقوى يقول ان هذا متناقض ظاهرياً بل انه عبث مليء باللغو. وهاكم مثال واحد على هذه النظرة:

«والآن بالنسبة للمسيحية! ان المسيحية تعلم ان هذا الشخص المفرد وكل شخص مفرد مهما كان رجلاً أو امرأة أو خادماً أو وزيراً أو تاجراً أو حلاقاً أو طالباً وما الى ذلك، هذا الانسان الفرد هو (إزاء الله). هذا الشخص المفرد الذي ربما يكون فخوراً بأن يتحـدث مع الملك ذات مـرة في حياته، هذا الشخص الذي لا يتصور ولو قليلاً أنه على وفاق مع بعض الأشيـاء، هذا الشخص يـوجد ازاء الله ويمكن أن يتحدث الى الله عندما يريد ويتأكد انه سوف يستمع اليه، بالاختصار، هذا الشخص مدعو الى أن يعيش في وفاق مع الله. زيادة على ذلك، بالنسبة لهذا الشخص، وكذلك من أجل هذا الشخص يأتي الله الى العالم ويدع نفسه يولد ويعاني ويمـوت، وهذا الله الـذي يعاني يـرجو ويتضرع لهذا الشخص أن يتقبل المساعدة التي يقدمها له! حقاً، اذا كان هناك أي شيء يجعل الانسان يفقد عقله

فيجب أن يكـون هذا! كـل شخص مفرد ليست لـديـه الشجاعة المتواضعة للايمان بهذا هو انسان مفضوح. ولكن لماذا هو مفضوح؟ لأنه سام عليه، لأنـه لا يستطيـع ان يستوعب هذا، لأنه لا يستطيع في مواجهته ان يحرز صلة قلبية صريحة ومن ثم يستعبده ويحوله الى عدم، الى جنون ولا معنى لأنه يبدو أنه سيجعل منه شيئاً عقيماً».

ولكن يمكن أن توجد صعوبات اخرى عديدة بالمثل في احراز الايمان. «فاذا تحدثنا من الناحية الانسانية» هناك الطبائع السعيدة والطبائع التعسة. فبالنسبة للطبائع التعسة قد يكون من الصعب الايمان بأن النفس المعطاة التعسة قد (أطلقها الله). وسورين كيركجرد قد اعتبر نفسه ـ اذا تحدثنا انسانياً ـ بأن له طبيعة تعسة وضائعة من الناحية الجسمانية والعقلية على السواء. فمن مولده، وهو «رقيق، خفيف، وضعيف» وهو لا يكاد يعد نفسه (رجلاً كاملاً). بالأضافة الى هذا، من أوائل حياته، «وقد هيمنت عليه سـوداوية هائلة» كانت تتغذى من ناحية بظروف أسرته المأساوية وتجد أكبر تعبير عنها في الأفكار والايمان بوجود لعنة أُسرّية. ثم جاءت انحرافات شبابه مهما كانت. وفي بؤرة هذا المركب التعس تكمن «الشوكة في اللحم». ولا يُعرف على وجه اليقين ما الذي يشير اليه كيركجرد بهذا التعبير، ولكن من

المؤكد أنه يعتبر شوكته التي في اللحم شيئاً جسمانياً. وكما ذكرنامن قبل كان كيركجرد مزدوجاً ثنائياً روحياً يرى الانسان على أنه «مركب من الجسم والروح». ولكن بين المفاهيم الأساسية كان يركز على ما هو جسماني. ان الشوكة التي في اللحم تشير ايضاً الى «انفعال سرّي» أو «نقص أساسي» يجعله «استثناء» في اطار ما هو إنساني ويحول بينه وبين «تحقيق ما هو كلي». كل ما هنالك انه يعد نفسه (مفضلاً) من ناحيتين: لأنه كان مستقلاً من الناحية الاقتصادية ولأنه يمتلك «عبقرية رائعة». زيادة على ذلك، لقد فسّر هذه المزايا على أنها تتضمن الزامات.

وسورين كيركجرد يتحدث عن هذه الأمور في فقرات مختلفة في كتبه ويومياته ، ولكن في الغالب بشكل يسمح بالتفسيرات المتباينة. ولن نوغل في هذه النقطة هنا، ولكن سنلاحظ فحسب أنه في كتابه (المرض حتى الموت) تجد في ذكراه مرات عديدة أننا على وعي بالخلفية التي تبدو شخصية للغاية. وعلى اكبر الاحتمالات مع طبيعته التعسة كان يعرف مصاعب تقبل وامتلاك نفسه كما (أطلقها) الله. وعلى الأرجح أيضاً أنه كان يعرف اغراء الضعف، «في ألا تريد أن تكون نفسك» وكذلك اغراء التحدي «لكي تكون نفسك» بقول آخر: انه يعرف مصاعب «تواضع الانسان

ازاء الله» وهو بسيكولوجيا ليس لها مثيل يغوص في أعماق الطبيعة التعسة الخاصة بالانسان المفضوح أزاء الله، واليأس الشيطاني والخطيئة في حق الروح المقدس وأشياء أخرى.
ونجد على سبيل المثال:

«ان اليأس الشيطاني هو اكبر شكل لليأس الذي يريد أن يكون ذاته. وهذا اليأس لن يكون حتى ذاته في الافتتان الرواقي مع ذاته أو في عبادة الذات غير راغب بهذه الطريقة ومع هذا في اطار كماله أن يكون ذاته، كلا، ان اليأس يريد في كراهية الوجود ان يكون ذاته، انه لا يريد حتى في تحدي الأرادة أن يحرر نفسه من القوة التي تطلقه... التمرد ضد الوجود كله، انه يظن أن هذا برهان ضد، ضد خيريته. ان الشخص اليائس يعتقد أنه هو نفسه هو هذا البرهان وهذا هو ما يريده ولهذا فهو يريد أن يكون نفسه، يكون نفسه في انفعاله لكي يستطيع بهذا الانفعال أن يحتج ضد كل الوجود. وبينما ينصت اليائس الضعيف الى لا شيء من الراحة، فإن الأبدية تستعد له، حتى ان هذا النوع من اليائسين لا ينصت اليها بل لداعٍ مختلف: ان مثل هذه الراحة سيكون فيها دماره، كأعتراض ضد كل الوجود. واذا تحدثنا بالرمز والتشبيه يبدو الأمر كما لو أن المؤلف قد انزلق قلمه وأن هذا الخطأ قد اصبح مراعياً

بنفسه على هذا النحو.. كما لو كان هذا الخطأ سيتمرد ضد المؤلف منطلقاً من الكراهية لمنعه عن تصحيحه، وفي التحدي الجنوني يقول: «كلا، لن أمحى، سأظل كشاهد ضدك، شاهدك على أنك كاتب تعس».

هذه الفقرة يمكن ان تتبعها فقرات من النوع نفسه أو النوع المشابه في الكتب وفي اليوميات على السواء. ومن أشد الاشكال تأثيراً ولها طابع مرضي تحليلاته لمسرحية ريتشارد الثالث لشكسبير في كتابه (الخوف والرعشة) وفي «مذنب أم غير مذنب؟» وعلى أية حال، لم يفقد سورين كيركجرد نفسه فيما هو شيطاني. لقد «نأى» ، لقد تواضع ازاء الله وتمسك بالايمان . ومع هذا بتحفظ هام تحدث عنه في (المرض حتى الموت) باحكام يدعو الى الاعجاب. ونلخص الأمر فنقول:

ان سورين كيركجرد كما رأينا من قبل يحتمل انه لم تكن لديه شكوك عن حقيقة المسيحية، بالرغم من انه ادرك صعوبات الايمان بشكل لم يكن لدى اي انسان آخر. ومسألة اخرى تماماً، انه كان يشعر في فترات مختلفة من حياته انه اكثر قرباً من او اكثر بعداً عن المسيحية. ومن المؤكد انه لم يعد نفسه كمسيحي «بالمعنى الدقيق للكلمة». ولا يدل هذا على أي اهتزاز في الايمان، ولكنه يدل على نقد

ذاتي قاسٍ فيما يتعلق بتحقيق مطالب الايمان (وجودياً) كما رآها. وفي كتابه (المرض حتى الموت) نلاحظ في فقرة رائعة في بداية القسم الثاني وصفه «لما يمكن ان يسمى الوجود ـ الشاعر الذي موضوعه الأساسي هو النزعة الدينية» وفي الفقرة التي تلي هذا، هناك نقطتان رئيسيتان: أولاً ـ ايجاز مثل هذا الوجود ـ الشاعر ليس متعلقاً بما هو ديني من الناحية الوجودية. ثانياً، وبتفصيل أكبر، ان الوجود ـ الشاعر المطروح شيء ملحوظ في أن هناك «شيئاً ما» في نفسه، انفعالاً سرياً، شوكة في اللحم (لا يستطيع ولا يريد) في الايمان ان يخضع نفسه لها ولا يأخذها على عاتقه بأعتبارها تمت لنفسه. وهذه الفقرة على هذا النحو:

«من وجهة النظر المسيحية كل وجود ـ شاعر (برغم كل ما هو جمالي) هو خطيئة... انه خطيئة إضفاء الطابع الشعري بدل إضفاء الطابع الوجودي، والوقوف في علاقة مع ما هو خير وحقيقي من خلال التخيل بدل أن يكون هذا الخير وهذه الحقيقة، أي يسعى وجودياً اليها. ان الوجود ـ الشاعر الخاص هنا موضع النظر مختلف عن اليأس (العادي) في أنه يتضمن فكرة الله أو أنه ازاء الله، لكنه جدلي للغاية وكما لو كان في تشوش جدلي لا يخترق، فإلى أي حد هو داعٍ بأنه مخطىء وآثم. مثل هذا الشاعر قد

تكون لديه حاجة دينية عميقة للغاية، وفكرة الله متضمنة في يأسه. انه يحب الله فوق كل شيء، الله الذي هو الراحة الوحيدة له في انفعاله السري، ومع هذا فإنه يحب الانفعال، ولا يريد أن يدعه يغلق. انه يريد كثيراً ان يكون نفسه ازاء الله ولكنه ليس عند النقطة المحدودة التي عندها تعاني النفس، وهناك يريد - يائساً- ألا يكون نفسه، انه يريد الأبدية أن تقتلعه، وهنا، فيما هو زماني ووقتي، لا يهم من الذي سيعاني لها، انه لا يستطيع ان يتخذ قراراً بتقبلها وهو لا يستطيع في الايمان أن يتصنع لها. ومع هذا يستمر في ارتباط نفسه بالله وهذه هي نعمته الوحيدة، سيكون اكبر رعب بالنسبة له ألا يكون مع الله «فهذا شيء يدعو الى اليأس»، ومع هذا فإنه يسمح لنفسه - ولكن ربما بدون وعي - ان يضفي طابعاً شعرياً على الله، ويقصد ان يكون الله مختلفاً قليلاً عن الله المعروف، مختلفاً قليلاً مثل الأب المعبود الذي يشبع الى حد بعيد رغبة طفله الوحيدة. انه اشبه بالانسان التعس في الحب والذي يصبح شاعراً يثني على سعادة الحب، وهكذا يصبح شاعر النزعة الدينية. لقد كان تعساً في النزعة الدينية، وهو يتبين بقيامه ان ما هو مطلوب منه هو اطلاق هذا الانفعال أي مع الايمان ليتصنع له ويتقبله على انه يمت الى النفس، لأنه يحاول ان يستبعده

منه وهو بقيامه بهذا يتمسك به اكثر بالرغم من انـه في الحقيقة يعتقد (كما هو الشأن في كل كلمة خاصة باليأس تكون صحيحة بالعكس ومن ثم يجب فهمها معكوسة) ان هذا يجب ان يعني ان يخلص نفسه منه بقدر الامكان وجعله يذهب بعيداً بقدر الامكان بالنسبة للانسان. ولكنه يتقبله في الايمان، انه لا يفعله، أي انه في النهاية لن يفعله أو هنا تنتهي نفسه في الضباب. ولكنه مثل وصف الشاعر للحب، ووصف الشاعر لما هو ديني له غناؤه، له تفلته الغنـائي بشكل ليس عند أي زوج أو أي رجل دين. وكذلك فإن ما يقوله ليس باللاحقيقي على أي نحو، ان عرضه هو أقصى سعادته، هو (أناه) الأفضل. وهو في علاقته بما هو ديني يكون محباً تعساً أي أنه ليس مؤمناً بالمعنى الدقيق للكلمة، ان كل ما لديه هو الاستهلاك الأولي للأيمان: اليأس، وفي هذا اليأس يوجد اشتياق حار لما هو ديني. وان صراعه هو في الحقيقة على هذا النحو: هل هو المختار؟، هل الشوكة التي في اللحم هي التعبير عن حقيقة انه مقسوم لمـا هو فريد ؟ هل هو بإزاء الله كما هو الشأن بالنسبة للمستثنى؟ ام ان الشوكة التي في اللحم التي يجب ان يتصنع ازاءها تحرز ما هو انساني كلية؟. ولكن كفى. انني استطيع ان اؤكـد الحقيقة: «لم أتكلم؟» من الـذي يعبأ بمثـل هـذه

الابحاث السيكولوجية التي تصل الى ذراها؟ ان لـوحات نرومبرج التي رسمها القسيس سهل عليها ان تفهم، انها تشبه كل انسان، انها من الناحية الوصفيـة تشبه النـاس العاديين ولكنها من الناحية الروحية لا تفهم شيئاً».

شـاعر النـزعة الـدينية! هـل يعلن كيركجـرد بهذه الكلمات تشخيصه الذاتي وحكمه الذاتي؟ هناك الكثير الذي يوحي بأنه يفعل هذا ولكنه ليس من الممكن فهم عمق المسألة،إلا إذا تبينا كيف كان كيركجرد يفهم (وجودياً) تعبير الايمان المسيحي الذي كان يتطور خلال تلك السنوات، وهذا ما سوف نناقشه فيما يلي.

التدريب على المسيحية

في أيلول (سبتمبر) ١٨٥٠ نشر كيركجرد كتابه «التدريب على المسيحية» وكان يشغل في طبعته الأصلية ٢٧٦ صفحة. وهو مثل كتاب (المرض حتى الموت) له أهمية كبرى لفهم تفسير كيركجرد للمسيحية. والكتابان يكملان بعضهما. في كتاب (المرض حتى الموت) الموضوع هو المسيحي إزاء الله. وفي كتاب (التدريب على المسيحية) الموضوع هو المسيحي إزاء المسيح. وهذا الكتاب الأخير قد كتب في أوائل عام ١٨٤٨، وربما ننصح القراء الذين يرغبون في التوصل الى فهم أعمق لكيركجرد أن يقرأوا هذا الكتاب قبل كتاب (المرض حتى الموت).

وكما ذكرنا من قبل، لا يمكن طرح أي برهان على حقيقة المسيحية، وهذا هو رأي كيركجرد. كل المحاولات في هذا الشأن مرفوضة فكيركجرد يراها وهمية. المسيحية ليست «مسألة معرفة» بل «مسألة ايمان». وبالنسبة (للتدريب) الحق كمسيحي، يجب أن يتوجه الانسان الى الأناجيل، الى سجلات حياة المسيح ومواعظه. وبقدر الإمكان على الانسان أن يحاول «ان يجعل نفسه معاصراً» مع المسيح، يجعل نفسه معاصراً مثلما كان معاصرو المسيح. «ايها السيد المسيح، نود أن نكون أيضاً معاصرين لك ونراك في صورتك الحقيقية وفي بيئة الواقع كما مشيت هنا على الأرض، لا بالذكريات المجمعة الجوفاء الخالية من المعنى، الخالية من الشاعرية التي شوهتك». وفهم حياة المسيح ومواعظه (وهي معاصرة) هو الأطروحة الأساسية في كتاب (التدريب على المسيحية) ومن الناحية التاريخية، الكتاب مماثل لكتاب توماس كمبس «محاكاة المسيح» ولكن هناك اختلاف شاسع بينهما!

هناك فكرة عامة متقبلة أن أولئك الذين كانوا معاصرين للمسيح والذين كانت لديهم فرصة رؤيته حياً وهو يعمل أو سماع مواعظه، كانوا قادرين على الايمان به وبرسالته الإلهية على نحو اسهل منا نحن الذين نعيش بعد

هذا بعدة قرون وليس لدينا سوى تراث الكتاب المقدس نعتمد عليه. ويؤكد سورين كيركجرد ان العكس هو الصحيح. فنحن الذين نعرف النتائج التاريخية الهائلة لحياة المسيح على الأرض، والانتشار والتطور القويين للمسيحية يمكننا أن نؤمن بألوهيته بسهولة اكثر من معاصريه. «فهي مسألة دقيقة بالنسبة لمعاصر أن يتقبل انه يحمل أمارات ومعجزات وهو يراه على مسافة منه، عندما يكون جماع حياته عوناً على الخيال، حينئذٍ يمكن تبين أن الانسان يؤمن بهذا». وكيركجرد ببراعة شديدة يستحضر صورة ليسوع المسيح المتواضع كان يراها قومه في وقته، الانسان الفقير المولود من «عذراء محتقرة و(ابيه النجار) . وهكذا فإن الانسان الفقير ومعه اثنا عشر حوارياً من أشد طبقات الشعب اتضاعاً، كانوا في فترة ما موضع فضول ولكنهم كانوا فيما بعد في صحبة الخطأة وجباة الضرائب والمنبوذين والمجذوبين».

فكيف يمكن للناس في زماننا أن ينظروا ويحكموا على شخصية المسيح وحياته وتعاليمه لو كانوا معاصرين له ومن ثم ليست عندهم معرفة بالتاريخ المستقبلي للمسيحية؟ ان كيركجرد يتخيل كيف ان نخبة تمثل عصره ستحكم وتعبر عن نفسها. وأول المتحدثن خمسة ممثلين «للحكماء

والحصفاء» ثم رجل دين ثم فيلسوف ثم سياسي ثم المواطن المتصلب وأخيراً الساخر. وفي هذه الصفحات الساحرة يمثل كيركجرد هذه الانماط المختلفة على نحو كامل. يقول ثاني الحكماء والحصفاء من بين الأشياء الأخرى التي يقولها:

«ان حياته خيالية بكل بساطة، وحتى ان هذا اكبر تعبير متواضع يمكن أن يطبقه هنا ومع هذا الحكم روح عالية تُنسي تماماً جنونه الغريب بشأن اعتبار نفسه إلهاً. انه خيالي. على الأخص يمكن للانسان ان يعيش على هذا النحو لسنوات قليلة في شبابه. لكنه كان قد تجاوز الثلاثين، وهو لا شيء من الناحية الحرفية. زيادة على ذلك لا بد أنه فقد في فترة وجيزة تماماً كل احترام وكل سمعة بين الناس، وهي الشيء الوحيد الذي يمكن أن يقال انه حققه حتى ذلك الوقت. فاذا أراد الانسان أن يضمن لنفسه الشعبية على المدى الطويل ـ والذي اعترف بأنه اكد فرصة كلها مخاطرة ـ فيجب أن يسير على نحو مختلف. ولم تنقض إلا بضعة أشهر وقد ضاق الجمع بذلك الانسان الذي هو في خدمتهم على هذا النحو، لقد اعتبر منبوذاً، لقد اعتبر (ذاتاً سيئة) قد يكون سعيداً لو انتهى في ركن قصي من العالم ناسياً العالم ومنسياً في استمرار المجرى الكلي لحياته وربما يتعصب لدرجة يتمنى فيها أن يُقتل ، وهذه هي النتيجة

المحتمة لبقائه في موضعه... الأنضمام اليه؟ كل، أقول شكراً، أشكر الله انني لم اجن بعد».

ومن بين الأشياء الأخرى يقول رجل الدين:

«بالنسبة للدجّال ومُغوي الشعب هنا لا شيء صادق بالنسبة له على نحو فريد حقاً، والأمر هكذا حتى أنه ليس خطراً تماماً مهما يبدو الأمر خطراً، طالما دام الوابل وتبدو شعبيته الخطرة مع انتهاء الوابل والناس، الناس نفهم هم الذين ينبذونه. والشيء الصادق هو طرحه على أنه المسيح ثم التشبه به كما يفعل ـ هذا صادق بمثل ما يصدر الانسان أوراقاً نقدية زائفة ويجعلها سيئة لدرجة أن من عنده دراية يفوت عليه الزيف. حقاً، اننا جميعاً ننتظر المسيح بالرغم من أنه لا يوجد انسان عاقل يتوقع أن يأتي الله مشخصاً وكل الناس المتدينين هزوا اكتافهم سخرية لادعاء هذا الرجل. ومع هذا فنحن جميعاً نتفق على اننا ننتظر المسيح. غير أن حكم العالم لا يمكن أن يستمر بالقيود والأصفاد، فإن تطور العالم كما تدل الكلمة نفسها ليس ثورياً بل تطورياً. ومن ثم بأن المسيح الحقيقي سوف يظهر على نحو مختلف، انه سوف يأتي على أنه ذروة التطور المزدهر العظيم لحالة الأشياء الراهنة. على هذا النحو سوف يأتي المسيح وسوف يتصرف على نحو مختلف، انه سوف يقرّ الوضع

الـراهن للأشيـاء كسلطة، وسـوف يـدعـو جميـع الكهنـة للامتناع، وسوف يقدم نتائجه وتعميداته ، ثم اذا حدث اقتراع عام سوف يجري تقبله وينادي به على انه الرسول الفريد «المسيح».

ويقول الفيلسوف:

«مثل هذا العبث المخيف أو بالأحرى مثل هذا العبث الجنوني، الا وهو أن انساناً يريد أن يصبح الله لهو شيء لم نسمع به من قبل، انه شكل من اشكال الذاتية المتطرفة وسلب خالـص متطرف لم نر له مثيلاً من قبل. انه بلا عقيدة وبلا مذهب، وهو لا يعرف في الحقيقة شيئاً، ليس لديه سوى أقوال حكمية قليلة، بعض الشعارات ومجموعة من الأمثال والحكم يستمر في تكرارها أو ينوع فيها ومن ثم يحير الجماهير التي يظهر لها العلامات والمعجزات، وهم بـدل أن يعرفوا شيئاً أو يتلقوا بعض التعاليم الحقيقية يؤمنون به ذلك الذي يواصل فرض ذاتيته عليهم. وفيه وفيما يقوله لا يوجد شيء على الاطلاق موضوعي أو ايجابي، وبشكل ما لا يحتاج الى أن يذهب الى أبعد من هذا لأنه قد وصل الى الهاوية ـ فلسفيـاً ـ فمصير الـذاتية المحض أن تنتهي في الحقيقة. انني أقرّ بأنه ذاتية بارزة وأنه يعد ـ بصرف النظر عن عـلاماتـه ومعجزاتـه الأخرى ـ معلمًا ويكـرر معجزة

الأرغفة الصغيرة الخمسة: بمساعدة قليل من الغنائية والحكم والأمثال. وهو يثير البلاد كلها. ولكن حتى لو استطاع الانسان أن يتجاوز الجنون، أنه يعتبر نفسه الله، فإنه سيكون خطأ لا يستوعب يكشف عن قليل من التربية الفلسفية وهو الايمان بأن الله يستطيع ان يكشف عن نفسه على شكل انساني أصلاً. ان الجنس البشري، الكلي، الشامل هو الله، ولكن الجنس البشري مؤكد انه ليس فرداً واحداً. ليس هناك سوى التكبير القائم في الذاتية وهو أن الفرد يريد ان يكون شيئاً، لكن الجنون بطبيعة الحال هو أن الفرد يريد ان يكون الله.. فاذا كان هذا الجنون ممكناً وهو أن يكون الانسان الله، اذن فيجب أن يسجد الانسان لهذا الفرد، ولا يمكن تصور أكثر من هذا وحشية فلسفية».

والمواطن المتصلب يقول، وقوله يمثل رأي كل أسرته: «كلا، لنكن أناساً عاديين وحينئذٍ يكون كل شيء على ما يرام في الاعتدال. فالافراط والتفريط يدمر كل شيء، وكما يقول المثل الفرنسي الذي سمعته ذات يوم من تاجر جوال: «كل قوة تبالغ يُطاح بها» وإطاحة هذا الانسان مؤكدة بما فيه الكفاية. لقد أخذت أبني للعمل وحذرته من أن يتخذ موقفاً خاطئاً وينضم الى هذا الرجل ولأية دواع؟ لأن الجميع يجرون وراءه. نعم، جميع من؟ الناس الكسالى الذين لا

قيمة لهم، المتسكعون والأفـاقون الـذين يجرون بسهـولة. ولكن ليس أرباب البيوت أو الأغنياء وليس من بين الناس المهـرة والمحترمـين ولا حتى جبسن مستشـار الـدولـة ولا ماركوس السياسي ولا كريستوفرسن القنصل الغني، كلا، كلا، فأولئك يعرفون ما هو صحيح. واذا نحن نظرنا الى الكهنة الآن الذين يفترض فيهم أنهم يعرفون حقائق مثل هذه الأشياء ، فإنه ليس لديهم شيء على الاطلاق. وهاكم ما قاله باستور جرونفالد في النادي في الليلة الماضية: «تلك الحياة، سوف تنتهي بكارثة مخيفة»، وهذا الرفيق لا يستطيع سوى أن يعظ، ولا يجب أن تنصتوا اليه في الكنيسة يوم الأحد، بل في النادي يوم الاثنين، لكن أود لو كان لي نصف معرفته عن العالم. حقاً ما يقول، وهذا ما يصدر من صميم قلبي: «الكسالى ومن لا قيمة لهم هم وحدهم الذين يجرون خلفه». ولماذا يجرون خلفه؟ لأنه يستطيع ان يقوم ببعض المعجزات. ولكن من الذي يقول انها معجزات أو أنه يعطي تلامذته نفس القدرة، ومع هذا فـالمعجزة هي شيء مشكوك فيه. بينما ما هو يقين هو شيء يقيني. وكل أب جاد يربي أطفاله يجب أن يقلق في الحقيقة خشية أن يشتطوا ويفتتنوا ويلحقوا به وبالناس اليائسين الذين يتبعونه، اليائسون الذين لا يملكون على الاطلاق شيئاً يفقدونـه.

وحتى هؤلاء كيف يمكن له أن يساعدهم؟ لا بد وانك مجنون اذا أردت أن تتم مساعدتك علي هذا النحو، وحتى في حالة كونك أفقر شحاذ فإنه يساعدك بأن يقذف بك الى النار فيلقي بك في بؤس جديد. كان يمكن للشحاذ أن يتجنبه لو كان قد ظل بمنأى وظل على ما كان عليه مجرد شحاذ بسيط».

لقد كان القديس بولس الذي ردد الكلمات عن المسيحية بأنها «فضيحة لليهود وحماقة لليونان». وهناك قدر كبير في كتاب (التدريب على المسيحية) يمكن فهمه على أنه شرح رائع لتلك الكلمات التي يذكرنا بها كيركجرد موافقاً في صفحات مختلفة من كتاباته. والحقيقة هي ان كيركجرد اعتبر الفرد المواجه بتعاليم المسيحية يجب (اما) ان تفضحه (أو) يؤمن بها. ومن الناحية السيكولوجية ليست هناك امكانية ثالثة وهذا ما يجب أن تكون عليه الأمور. (امكانية الفضيحة) يجب أن تظل حية حتى في الشخص الذي أحرز الايمان، كتحريض لعاطفة الايمان والاحتفاظ بالايمان. وفي مواضع قليلة يقول كيركجرد ان الفرد المواجه بالمسيحية (يجب) ان يفتضح أو يؤمن. ويرتبط هذا بنظرة خاصة متطرفة أخرى عند كيركجرد. فعنده ليس يمكن أن «توضع المسيحية موضع عدم الاكتراث». ان من (لم) يتخذ موقفاً

(قد) اتخذ موقفاً مع هذا. وبالمصطلحات الوجودية الحديثة: ان من لم يلتزم قد التزم مع هذا. والأمر دائمًا على هذا النحو عند كيركجرد، عندما تكون الأشياء الحاسمة معرضة للخطر يظهر تأثير المسيحية البدائية. «ان من ليس معي ضدي». هذه هي الصيغة الاساسية للتعصب على مدى العصور.

وعلى أية حال، لا يتناول كتاب (التدريب على المسيحية) «امكانية الفضيحة» ونتيجتها بالايمان فحسب، بل يتناول الايمان نفسه ورسالته. وكيركجرد بلمسة اكيدة يلتقط قولاً من أبسط أقوال يسوع ويضعه في بؤرة التفكير «تعالوا إليّ انتم جميعاً يا من تعملون ويا من أنتم مثقلون وسوف أعطيكم الراحة». وكما أن المؤلف الموسيقي العظيم ينوع موضوعه،يتناول كيركجرد محتوى هذه الكلمات عبارة بعد عبارة وكلمة بعد كلمة. ويتم هذا بدقة وحساسية لها تأثير ساحر على كل قارىء بصرف النظر عن أيمانه أو عدم ايمانه. وعندما يصل الأستاذ البارع في النهاية الى تعليقاته الأخيرة يكتشف الانسان أنه يقرأ هذه العبارات البسيطة كما لو كانت لأول مرة.

الصراع مع الكنيسة القائمة

اعتبر كيركجرد الأسقف يعقوب بطرس مينستر (١٧٧٥ ـ ١٨٥٤) الممثل الأكبر للمسيحية الرسمية. ولقد كان كيركجرد منذ صغره يعرف مينستر الذي كان «كاهن أبي» وظل يتمسك عبر السنين برابطة معينة بهذا الأسقف البارز الذي يعجب به في مواضع عديدة. وقد أعرب مينستر عن تقديره لكتاب كيركجرد (مقالات نورانية) والتي كتبت حقاً من وجهات نظر تتطابق تماماً مع وجهات نظر المسيحية الرئيسية. ولكن مع التطور الأكثر صرامة لتفسير المسيحية بشكل يجعلها أكثر زهداً وابتعاداً عن الحياة فكذلك أصبح رأيه في مينستر متغيراً. لقد بدا له الاسقف

الآن مشغولاً للغاية بالعالم وملذاته وأصبح مستغرقاً على نحو انساني للغاية في الحياة الزمانية وأصبح واعظاً منخرطاً فيما هو جمالي. وفي الكتابين المذكورين من قبل يختفي اشكال قوي للغاية ضد الشكل المتهاون للمسيحية كما يعرضه مينستر. ومن يوميات كيركجرد نستطيع ان نتبين انه كان يتوقع من مينستر أن يعترف لكيركجرد بأنه (مينستر) لا يمثل المثال المسيحي الصارم. غير أن هذا الاعتراف لم يصدر. بل بالعكس، أظهر مينستر كراهية لكتاب كيركجرد «تدريب على المسيحية» الذي أطلق عليه «لعبة الحادية مع ما هو مقدس». وفي ٣٠ كانون الثاني (يناير) ١٨٥٤ مات وهو في التاسعة والسبعين دون ان يتوصل الى فهم كيركجرد الذي حاول عدة مرات أن يحقق هذا.

وفي يوم الأحد قبل جنازة الأسقف مينستر، ألقى أستاذ اللاهوت هـ . ل. مارتنسن موعظة تأبينية عن الأسقف في كاتدرائية كوبنهاجن. ومن هذه الموعظة التي طبعت منفصلة فيما بعد، أعلن مارتنسن أنه من مينستر «تفضي افكارنا الى التتابع الكلي لشهود الحق الذي يشبه سلسلة مقدسة تصل عبر العصور من أيام الحواريين». وكان لهذا تأثير سيّىء على كيركجرد. وفي التو كتب احتجاجاً ولكن لاعتبارات انتخابية كهنوتية لم ينشر الاحتجاج حتى يوم ١٨

كانون الأول (ديسمبر) ١٨٥٤ عندما طبع في الصحيفة اليومية (الوطن) عندما خلف مارتنسن مينستر وعنوان المقال: «هل كان الاسقف مينستر (شاهدا على الحقيقة) وهل كان (شاهداً أصيلاً على الحقيقة) ؟ هل هذه هي الحقيقة؟».

وقد أعرب كيركجرد عن اعتراضاته بكلمات حارقة. ان مواعظ مينستر المسيحية تحجب أو تمنع أو تحذف شيئاً مسيحياً مؤكدا، وهو ما يجده البشر أكثر اقناعاً وهذا هو ما يجعل حياتنا متقدة ونشطة وعدم الاستسلام للعالم واحتقار الذات والمعاناة من أجل العقيدة الخ.. ومينستر لم يعط حتى في حياته تعبيراً عن النغم المفقود للمسيحية الذي يعظ به. فخارج (الساعات الصامتة) لم يكن يفعل (بشخصه). وبعد هذا تحدث كيركجرد عن المطلب المسيحي عن شاهد الحق.

وفي رأي كيركجرد ان هذا يتطلب (معاناة من أجل العقيدة) مطلقة. ان شاهد الحق هو الانسان الذي حياته منذ بدايتها حتى نهايتها هي الجهل بكل شيء يسمى المتعة. لكنه من جهة اخرى منذ بدايتها حتى نهايتها يكون في مقدمة كل ما يسمى معاناة. لا بالنسبة لأشكال المعاناة الشائعة للعالم فحسب، بل بالنسبة أيضاً لأشكال المعاناة

التي لا تذكر إلا نادراً، لأنها لا تظهر إلا بندرة أشد في الصراعات الباطنية والخوف والرعشة والذعر وقلق الروح وانفعالات الروح. والشاهد الحقيقي هو أيضاً رجل في فقر لشهادة الحق، انه مفتقر وأنه مُساء فهمه وممقوت ومتهكم عليه ومهان ومضحوك منه. ان الشاهد على الحقيقة، الشاهد (الأصيل) للحقيقة هو انسان مُعاقَب، مساء معاملته، مساق من سجن الى آخر، ثم في النهاية مترقٍّ حيث يعترف به في قمة السلك الكنسي بين الشهود الأصلاء على الحقيقة. وأخيراً يصلب أو تضرب عنقه أو يُحرق أو يشوى على محرقة ويُنقل جسمه الفاقد الحياة على يد الجلادبعيداً عن موقع الوفاة دون ان يدفن. ومن هنا يدفن كشاهد على الحقيقة!

هذه كانت اشارة البدء لمعركة من احدى المعارك الكهنوتية الضارية في تاريخ الدانمارك وقد رد مارتنسن بترفع مؤذٍ، واعتراضه الرئيسي هو ان كيركجرد قصد مصطلح «الشاهد على الحقيقة» على (الشهداء) فحسب. لكن من الممكن ان تكون شاهداً على الحقيقة دون ان تكون شهيداً. يتساءل مارتنسن: كيف بحق الله يمكن للدكتور سورين كيركجرد أن يعتقد أنه مبرر بقصد المصطلح بمثل هذه الطريقة العالية التناول والتي هي مناقضة تماماً للاستخدام

الكهنوتي؟ كيف يمكن لهذا التشخيص أن يستبعد القديس يوحنا الذي لم يحرق ولم يصلب ولا حتى استبعد الجلاد جثته بعد الموت بل دفنته الجموع، كيف يمكن أن يستبعد من زمرة شهود الحقيقة؟.

لأول وهلة يبدو هذا الاعتراض أن له ثقلاً لكنه ليس حاسمًا. لقد ذهب كيركجرد الى أنه لا يسوي على الاطلاق بين شاهد الحقيقة والشهيد (شاهد الدم). انه يفترض عدداً من شهود الحقيقة اكبر من الشهداء. ان تعريفه لشاهد الحقيقة قائم في الحقيقة على افتراض انه هو الانسان (الذي يعاني من اجل العقيدة) دون أن يتعرض بالضرورة لمعاناة الاستشهاد. ولكن عندما يكون هناك ذكر للشاهد (الأصيل) على الحقيقة والذي عبر عنه بنفسه بقوله الشاهد على الحقيقة في ذروة السلك الكنسي، اذن فإن من رأيه اننا نبحث الشهيد، شاهد الدم. زيادة على ذلك، من المؤكد أن نظرة كيركجرد تذهب الى أن الأسقف مينستر لا يمكن أن يعد شاهداً على الحقيقة بالمعنى الواسع للكلمة، لأنه لم يعان من أجل العقيدة، ومن ثم فهو في رأي كيركجرد قد سقط في العالم ومباهجه. وعلى أية حال لم يعش في مسغبة.

وقد أثارت هذه الآراء حملة عاصفة في الصحافة

ساهم فيها الكثيرون ومعظمهم معاد لكيركجرد ويكاد يكون وحده وقد خاض المعركة بقوة وعاطفة شديدتين. وفي آذار (مارس) ١٨٥٥ نشر في صحيفة (الوطن) مقالا يوضح فيه موقفه اكتسب شهرة خاصة بحق. وعنوان المقال هو (ماذا أريد؟) وهو يبدأ هكذا:

«بكل بساطة: أريد الاخلاص. انا لست قسوة مسيحية ضد التساهل المسيحي كما صورني الناس ذوو النية المغرضة.

كلا، أنا لست تساهلاً ولا قسوة. أنا إخلاص انساني.

ان التساهل الوارد في المسيحية الشائعة في هذا البلد أريد أن أضعه جنباً الى جنب مع العهد الجديد لأرى كيف يمكن ان يرتبط هذان الشيئان.

وحينئذٍ، اذا ثبت هذا، اذا استطعت أنا أو أي انسان آخر أن يبين أن شبهاً بالمسيحية في العهد الجديد: حينئذٍ سأتفق مع هذا بأكبر فرح.

لكن هناك شيء لن أفعله ولا لخاطر أي شيء في العالم: لن أحاول بالكبت أو الحيلة أن أقدم الوهم بأن

المسيحية العادية في هذا العهد ومسيحية العهد الجديد متشابهتان. تنبهوا، انني لن أفعل هذا».

وبعد هذا يرد في هذه المقالة، المثال الصارخ التالي بين أمثلة عديدة:

«ان معلمًا للمسيحية انما يتناول أجراً على سبيل المثال بضعة آلاف من الدولارات. فلو تجاهلنا الآن المعيار المسيحي وأخذنا بالمعيار الانساني العادي فإن هذا في الحقيقة طبيعي على نحو كامل أن الانسان يجب أن يُدفع له اجر مقابل عمله، يدفع له حتى يمكنه أن يحيا مع أسرته. وهو باعتباره مسؤول حكومي في وظيفة بارزة لا بد أن يكون له مرتب كبير: اذن بضعة آلاف من الدولارات في السنة ليست بالشيء الكثير. ومن جهة اخرى بمجرد قبول المطلب المسيحي للمسغبة على انه مطلب صادق اذن فإن الأسرة تكون ترفاً وتعد بضعة آلاف من الدولارات في السنة أجراً مرتفعاً. لا أقول هذا لأنني لا أريد ـ اذا اتيحت لي الفرصة ـ ان انقص سنتاً واحداً من المرتب، من مثل هذا الموظف، بل بالعكس، اذا أراد هذا، واذا كانت أمامي الفرصة يجب أن يتضاعف هذا الأجر ولكن ما أقوله هو أن منع المطلب المسيحي يغير النظرة الشاملة لمرتبه. ان الاخلاص للمسيحية

يتطلب من الانسان ضرورة أن يضع في اعتباره أن المطلب المسيحي هو المسغبة وأن هذا المطلب ليس تهويمة هوائية من جانب المسيحية، بل ان المسيحية لتعرف تماماً انه في المسغبة وحدها يمكن خدمتها بحق وكلما زادت الآلاف التي يتقاضاها معلم المسيحية كمرتب. قلّت خدمة المسيحية».

وقرب نهاية هذه المقالة الهامة هناك كلمات مدهشة عن امكانية «الارتفاع الى التمرد» ضد المسيحية، وهي كلمات نادراً ما لوحظ مداها وتفرّدها وهي تصدر من لسان كيركجرد. ونحن نقرأ:

«إنني أريد الاخلاص. اذا كان هذا هو ما تريده الانسانية أو هذا الجيل، اذا ثار بأمانة ومباشرة ودون تحفظ وبصراحة ودفعة واحدة ضد المسيحية، اذا قال للرب: (نحن نستطيع، نحن لن ننحني لهذه القوة) بل سنعبأ بك، فستقع بأمانة ومباشرة ودون تحفظ وبصراحة ودفعة واحدة: حسناً جداً، لا يهم اذا بدا هذا غريباً فسأعمل من أجله، لأنني أريد الأمانة. وأينما يقوم الاخلاص فسوف أشارك فيه».

وقد وجه كيركجرد في الوقت المناسب مشكلة اكثر واكثر ضد الكنيسة القائمة وضد الكهنوت كله، الألف

كاهن أو نحو ذلك في كل البلد الذين «يلعبون بالمسيحية» وجعلوا من الكنيسة «مصدر كسب للعيش» لكنهم لم يفهموا أن المسيحية هي أولاً وقبل كل شيء هي (الأرتفاع عن هذا). لقد صرخ في قارئه: «مهما تكن أنت، ومهما تكن حياتك في مجالات اخرى، دون المشاركة في العبادة الرسمية للكنيسة كما هي الآن (زاعمة أنها مسيحية العهد الجديد) فأنت لست معي وهناك خطأ كبيرا، أقلّه ألا تشارك في أن تجعل الله يبدو سخيفاً بأن يطلق على ما ليس بمسيحية العهد الجديد أنه مسيحية العهد الجديد».

وفي أيار (مايو) ١٨٥٥ بدأ كيركجرد ينشر صحيفة تسمى (الآن) تقتصر على نشر تهجماته. وقد ظهرت تسعة أعداد بين أيار (مايو) وتشرين أول (اكتوبر) ١٨٥٥ واتخذ الهجوم والسخرية من المسيحية الرسمية شكلاً يزداد سخرية. وفي العدد التاسع من (الآن) يسعى الى البرهنة على أن «الكهنة هم أكلة لحوم البشر وبأكبر شكل وحشي». ونجد على سبيل المثال:

ان الكاهن يستقر آمناً ومسترخياً في مقره الريفي، ويأمل أيضاً ان يكتسب انتشاراً جذاباً، وزوجته هي نفسها ممتلئة، ولا يقل عنها أولاده. وكل هذا بسبب معاناة مرض

العظماء شاهد الحقيقة، هذا هو ما يعيش عليه الكاهن، وهؤلاء العظماء هو الذين يأكلهم ويتغذى معهم من اجل الفتنة المبهجة للحياة ولزوجته وأولاده. لقد احتفظ بهؤلاء العظماء في احواض من الدموع. وهم يصيحون: «اتبعوني! اتبعوني ! »وهي صيحات بلا جدوى. ربما يظل للحظة يتحصن ضد تلك الصيحة ولكن مع كر الأعوام يصبح قاسياً حتى أنه لا يعود يسمعها. ربما اذا بدأنا يشعر بالخجل عندما يجد أنه يسمى (تلميذاً مخلصاً للمسيح). ولكن مع كرّ السنين يعتاد على سماعها حتى أنه يعتقد هو نفسه انها حقيقية. وهكذا يموت وقد انحرف كثيراً ويدفن على أنه شاهد على الحقيقة».

هذه الهجمات الشديدة أثارت عاصفة ضخمة في كوبنهاجن بين كل أصناف الناس واشترى الجميع صحيفة (الآن). وهذه العاصفة لم تخطئها البروليتاريا التي رأت في كيركجورد داعيتها من أجل ظروف أفضل. وقليل من الصفوة المثقفة انبرت للدفاع عن كيركجرد. اما اخوه الأكبر وهو حينئذٍ كان كاهناً فقد ظل صامتاً.

الــوفــــاة

بعد نشر العدد التاسع من صحيفة (الآن) انهار كيركجرد في الطريق وكان ذلك في اليوم الثاني من تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٥٥ ونقل إلى مستشفى فريدريكس في بريدجيد، حيث توفي يوم ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) وتاريخ الحالة المرضية تاريخ مستفيض، ولكن لسوء الحظ لا يظهر تشخيصاً محدداً. وكل ما يبدو واضحاً أنه كان هناك شلل بدأ في الساقين ثم بدأ في الانتشار في بقية جسمه.

ومن بين الزوار المنتظمين الذين وافق كيركجرد على استقبالهم صديق شبابه باستور أميل بواسن الذي كتب مذكرات عن هذه الزيارات. ويتضح من هذه المذكرات أن كيركجرد كان

واضحاً للغاية وظل محتفظاً حتى آخر لحظة بآرائه وأكد أنه كان على حق في تهجمه على الكنيسة. ولقد نجح في تحديد ما أراده وأنه الآن يشتاق للموت:

«لقد أردت أن أموت، وحينئذ أستطيع أن أتأكد أنني قد أنجزت مهمتي. وسوف يكون الناس أكثر استعداداً للإنصات إلى كلمات إنسان ميت عن الإنصات لكلمات الإنسان الحي».
وذات يوم سأل بواسن صديقه إذا ما كان يعتقد في الله وفي رحمته المتمثلة له في المسيح. وقد ردّ عليه كيركجرد بقوله: «نعم بالطبع، فهل هناك شيء آخر؟» وفي يوم آخر سأله بواسن: «ألا تريد أن تتلقى عشاءك الرباني؟» فقال كيركجرد: «نعم، ولكن ليس من قسيس، بل من إنسان عادي». فقال بواسن: «سوف يكون هذا أمراً صعباً» فرد كيركجرد: «إذن فسوف أموت دون أن أتناول العشاء الرباني». فقال بواسن: «ليس هذا صواباً!» فقال كيركجرد: «لا يمكن المناقشة في هذا الموضوع فقد اتخذت قراري، لقد اخترت. إن الكهنة موظفون رسميون، والموظفون الرسميون ليست لهم علاقة بالكنيسة».

وقد سأله بواسن أيضاً إذا كان لديه شيء آخر يضيفه.

فقال كيركجرد: «كلا. نعم، سلّم لي على كل إنسان، لقد أحببتهم جميعاً حباً جمّاً وقل لهم، ان حياتي كانت عذاباً كبيراً

لا يطاق بشكل لم يعرفه أحد عداي، لقد كان الأمر يبدو تكبراً وعبثاً لكن الأمر لم يكن هكذا على الإطلاق. إنني لست أفضل من الآخرين بالمرة، لقد قلت هذا ولم أقل ما عداه، لقد كانت لي شوكتي التي كانت تؤلم لحمي وبسبب هذا لم أتزوج ولم أستطع أن ألج الحياة، لقد حصلت على درجة علمية في اللاهوت وكانت لي حقوق رسمية وأفضليات خاصة، لقد كان يمكنني أن أحصل على ما أشاء لكن بدلاً من هذا أصبحت (المستثنى) أو (الشاذ). بالنهار كنت أعيش في الكلمة والتوتر وفي الليل كنت أَنَحَّى جانباً وكان هذا هو الاستثناء أو الشذوذ».

وكانت الجنازة في كاتدرائية كوبنهاجن واشترك فيها عدد كبير. وتحدث أخو كيركجرد بتحفظ شديد. وبدأ حديثه بطابع آل كيركجرد فذكّر الحاضرين بأبيهم الراحل وتأثيره الروحي، ذلك الرجل العجوز الذي كان كبير العائلة والذي وقف عند قبر كل أولاده فيما عدا الراحل الحالي وشخصه. ثم نوّه بالتأثير المختلف الشاسع الذي كان لأعمال أخيه في الدوائر المختلفة وأعرب عن رأيه بأن دوائر الشعب الدينماركي إنما تشكر الله العلي القدير لما منحه لأخيه لمشاهدة الحقيقة وتأسيسها بيننا. غير أنه أضاف إنه يعترف بأنه يأسف لأنه لا هو ولا الآخرون ممّن لديهم المحبة والرقة قد بذلوا جهدهم ليجذبوه نحو الراحة والهدوء من توتره الشديد في السنوات الأخيرة عندما كانت رؤيته

تصاب بغمام وتشوش من جراء حرارة المعركة حتى إن ضرباته كانت تكال بوحشية كيفما اتفق.

وفي فناء الكنيسة حيث وضع التابوت في مدفن الأسرة تكلم ابن أخت سورين كيركجرد الدكتور هنريك لوند الذي كان شديد التعلق بخاله بشكل كله حماس ونورانية واحتج على دفن خاله على الطريقة المسيحية الرسمية. وقد صاح: «توقفي أيتها اللصة!» وكان يقصد أن الكنيسة القائمة قد سرقت جثمان الراحل. وكان هنريك لوند من ضمن الهيئة الطبية خلال مرض كيركجرد ووفاته. وهناك أساس للاعتقاد بأن الدفن المسيحي الرسمي لم يكن مما يريده المتوفى ومن جهة أخرى نقش على شاهد مقبرته ـ حسب رغبته ـ شعر بروسون على النحو التالي:

«لحظة قصيرة
ثم أَنتصر.
ثم ان كل المعاناة
تكون قد ولت في التوّ.
وحينئذ يمكنني أن أستريح
في الوديان الحلوة
بشكل دائم
ومع المسيح أتكلم.»

خاتمة: الوجودية

مع وفاة سورين كيركجرد توقف الجـدل الكهنوتي العاصف من تلقاء نفسه. ولم تقدم الكنيسة جواباً شافياً عن هجمات كيركجرد بالفعل. ومنذ هذه الوفاة لم يقدم هذا الجواب الشافي أبداً حتى الآن على حد علمي. وقد جـرت مناقشة عدد من أفكاره الرئيسية على نحو نزيه في الدوائر الفلسفية المحترفة في الدانيمارك، ومن بين هذه الأفكار مشكلة علاقة الإيمان بالمعرفة ومشكلة علاقة النزعة الإنسانية بالدين، وقد شغلت هذه المشاكل الفيلسوفين راسموس نيلسن (١٨٠٩ ـ١٨٨٤) وهانز بروشنر (١٨٢٠ ـ ١٨٧٥) اللذين قد عرفا كيركجرد معرفة شخصية واللذين كانا على بينة من عبقريته.

غير أنه كان هناك المزيد من المعاني المختزنة. فكما ذكرنا من قبل خلّف سورين كيركجرد قدراً هائلاً من «اليوميات» تشمل الفترة الكلية من حياته من شبابه حتى وفاته فيما عدا بعض الفجوات البسيطة. وفي عام ١٨٦٩ بدأ هـ. ب. بارفورد نشر أجزاء كبيرة منها. وقد شكلت تسع مجلدات من «أبحاث متبقيات». وفي عام ١٩٠٩ بدأ ب. أ. هيبرج وف. كوهر في إعداد طبعة كاملة تحت عنوان «أبحاث سورين كيركجرد» وهي تقع في عشرين مجلداً ضخماً. ومجموع هذه المادة يعد ثروة كبيرة بالنسبة للفهم الأعمق لسورين كيركجرد كشخص ولعلاقته بكتاباته الغريبة والملغزة بشكل كبير.

وقد ساهم بارفورد بقدر كبير في إعداد المادة الخاصة بسيرة حياة كيركجرد مما جدد الاهتمام المعاصر به. وكان جورج براندز (١٨٤٢ ـ ١٩٢٧) أول كاتب يستغل المادة الجديدة في اعداد اول دراسة ذاتية دانماركية عن كيركجرد. ويعد كتابه الصغير «سورين كيركجرد» (١٨٧٧) كتاباً ساحراً ومليئاً بالحماسة في أغلب الأحيان وهو يركز أساساً ـ على أية حال ـ على الجانب الجمالي من كيركجرد. وقد وصف الفيلسوف بأنه «عبقرية قوطية». ووصف المؤلف مزاج الفيلسوف بالشفقة والاحتقار. وفي العام نفسه حاضر براندز عن كيركجرد في قاعة محتشدة في جامعة أبسالا. ونتيجة هذا قام و. رودين الأستاذ بهذه الجامعة بنشر كتاب

بعنوان «شخصية سورين كيركجرد وكتاباته» (١٨٨٠). وفي النرويج كان تأثير كيركجرد كبيراً على الشعراء الكبار وخاصة بيجورسون وابسن بالرغم من أن هذا التأثير تأرجح بين الشد والجذب. وقد تأكد أن مسرحيتي ابسن «بيرجنت» و«براندا» اللتين تقابلان المرحلتين الجمالية والدينية في حياة كيركجرد على التعاقب، ما كان يمكن لهما أن تظهرا دون تأثير الفيلسوف الدانماركي. وطوال حياته الشاملة ظل ابسن معجباً إعجاباً كبيراً بكيركجرد. والأمر نفسه ينطبق على الكاتب المسرحي السويدي أوجست ستريندبرج الذي كان يرى في كيركجرد ـ بكل بساطة ـ الفيلسوف بألف لام التعريف.

وفي الدانمارك تركت الأفكار الكيركجردية قدراً هائلاً من التأثير ايجابا وسلبا على الكتّاب البارزين. وهنا نذكر فقط الفيلسوف هيرالد هوفدنج (١٨٤٣ ـ ١٩٣١) لقد بدأ كدارس للاهوت وتخرّج على هذا النحو ولكنه تحت تأثير رأي كيركجرد في المسيحية آمن بفلسفة انسانية خالصة. وفي عام ١٨٩٢ نشر كتابه التثقيفي «سورين كيركجرد فيلسوفا». وبالتدريج بدأت تتزايد الآداب الدانماركية عن كيركجرد بشكل هائل. ولم يظهر مثل هذا القدر الكبير عن اي كاتب دانماركي. وللدراسات الدانماركية قيمة بصفة خاصة بسبب المعرفة الصحيحة بعصر كيركجرد في كوبنهاجن والمادة الخالصة بسيرة حياة كيركجرد وهي المسألة

الضرورية للفهم الكامل للعنصر الاشكالي السائد في كثير من اعمال كيركجرد. وقد تأسست عام ١٩٤٨ جمعية كيركجرد الدانماركية.

اما الشهرة الاكبر فقد كانت تنتظر كيركجرد في الخارج. فعندما مات في عام ١٨٥٥ لم يكن قد تُرجم أي من أعماله الى لغة عالمية. وهو لم يكن يعبأ بهذا وترك الأمر للعناية الالهية وكان يعتقد ان شهرته سوف تعم الآفاق ان عاجلا أو آجلا. وفي عام ١٨٦١ ظهرت اول ترجمة المانية. ولقد كانت لكتاب «العصر الراهن». ثم بدأت تظهر الترجمات عاما بعد عام. ومع بداية القرن العشرين اصبح اسم كيرجرد يحظى باهتمام كبير في الدوائر الأكاديمية الألمانية ويحظى بتقدير شديد كفيلسوف وكلاهوتي وشاعر على السواء. وخلال الفترة من ١٩٠٩ الى ١٩٢٢ ظهرت اعمال كيركجرد الكاملة بالألمانية مما أوجد مناخا فكريا هاما. ومن ألمانيا انتشرت شهرته الى فرنسا وانكلترا وايطاليا والولايات المتحدة الاميركية ثم الى كل البلاد المتحضرة حيث تدرس الفلسفة الغربية. وخلال عقدي السنين المنصرمين او الثلاثة عقود الأخيرة، عمت عبقريته الآفاق من دوائر اكثر اتساعا من خلال ظهور الوجودية. فهذه الحركة الحديثة في فلسفة الحياة ـ وربما هي الحركة الوحيدة التي تحظى بأكبر اهتمام ـ قد استلهمت على نحو مباشر سورين كيركجرد.

ان من الصعوبة بمكـان ترجمة هذا الفيلسوف الدانماركي أعني ترجمة الشعر الغنائي. فلا نكران اننا نفقد الكثير في الترجمة غير ان المترجمين يعملون بحمية لا تصدق وما تم انجازه يستحق الاعجاب. فمعظم «الأعمال» قد ترجمت الى اللغات العالمية الثلاث، وعديد من الترجمات لعدد معين من المؤلفات متاحة باللغات الثانوية الأخرى. كما أن هناك ترجمة كاملة الى اليابانية. وفي الوقت نفسه ظهرت آداب اجنبية عن كيركجرد بشكل مستفيض وظهر عام ١٨٦٢ «سـورين كيركجـرد ـ قائمـة ببيليوغرافية عالمية» اعدها جنز هملستروب وهي تشمل الرجوع الى ٦٩٩٥ كتابا ومقالة وعرضا.

وعلى اية حال فمما يؤسف له ان «المؤلفات» وحدها هي التي ترجمت كاملة اما (يومياته) الصميمية وأكثر أعماله اصالة ودلالة فانها غير متاحة باللغات الأجنبية الا على شكل مقتطفات. ويمكن الاعتراف بأن مكانة كيركجرد في الأدب العالمي سوف تتدعم أكثر عندما تنشر (يومياته) كاملة.

ويمكن اعتبار عام ١٩١٩ بصفة خاصة عاماً شهد تأثير سورين كيركجرد على الفلسفة العالمية. ففي تلك السنة نشر كارل ياسبرز كتابه الشهير «سيكولوجية النظرة الكلية للعالم». ويمكن ان يقال ان هذا المؤلف قد قدم الحركة الوجودية العالمية

على أساس كيركجردي. ولقد أشار ياسبرز الى المصادر التي استلهمها فاعترف بأن من بينها كيركجرد ونيتشه. ويمكن تتبع تأثير كيركجرد في معظم اعمال ياسبرز وخاصة فيما يتعلق بالنظرة الوجودية الاساسية كما يمكن تتبعها ايضا فيما يتعلق ببعض النقاط الخاصة الأخرى.

وبعد هذا بعدة سنوات نشر كتاب هيدجر العظيم والهام «الوجود والزمان» عام ١٩٢٧ وفيه اشارة الى كيركجرد على أنه مؤسس الوجودية في ص٦٢، وقد ركز هيدجر نفسه على انه هو نفسه قد توسع بالنظرة الوجودية الى مجال الأنطولوجيا الوجودية وهو مجال لم يشغل عند كيركجرد الا حيزا بسيطا.

وفي فرنسا نجد جان بول سارتر بصفة خاصة هو الذي جذب الأنظار الى الوجودية. وعنوان مؤلفة الفلسفي الرئيسي هو «الوجود والعدم» (١٩٤٣)(*) وقد أبدى اهتماما أنطولوجيا يسير معْ موقف هيدجر، لكن سارتر- في كتاباته الثانوية الأخرى - انشغل بالانسان الوجودي بالمعنى الكيركجردي نظرا لأن الموضوع المحوري في كتابات سارتر الأدبية وقصصه ورواياته ومسرحياته تتناول الانسان الوجودي. وان هيدجر وسارتر يمثلان صراحة الوجودية الملحدة على حين أن وجودية ياسبرز ذات طابع

(*) ذكر المؤلف ان سنة نشر الكتاب هي ١٩٤٥، فجرى تصويب سنة النشر. (المترجم).

ايماني نوعا ما. وفي فرنسا نجد أيضا وجودية كاثوليكية يمثلها مع الآخرين جبرييل مارسل. ومن بين الدراسات الفرنسية عن شخصية كيركجرد كتاب ب. منسار «الوجوه المختلفة لكيركجرد»(١٩٤٨).

والقراء الفرنسيون الذين درسوا فلسفة كيركجرد عن مراحل الحياة لا يستطيعون ان يتجنبوا تذكر بليز باسكال. فباسكال ـ مثل كيركجرد ـ يرى وجود ثلاثة اشكال من وجهات النظر إزاء الحياة هي: الأبيقورية والرواقية والمسيحية. فالأبيقورية ويمثلها في نظر باسكال الفيلسوف مونتيني هي التصور القائم على اللذة وهو ما يقابل المرحلة الجمالية عند كيركجرد. والرواقية ويمثلها عند باسكال الفيلسوف ابيكتيتوس بصفة خاصة فهي تقابل المرحلةالأخلاقية عند كيركجرد. والمسيحية هي شيء مشترك بينهما، وهي عندهما قبل كل شيء مسيح الخطيئة والمعاناة.

ولا تزال هناك تماثلات اخرى. فحرب باسكال ضد الجزويت كما هي واضحة في كتابه «رسائل ريفية» تقابل عند كيركجرد حربه الأخيرة ضد الكنيسة الرسمية في كتابه «العصر الراهن». كما يشتركان في المصير الشخصي. لقد كانت لدى باسكال في شبابه الفترة «المدنية» وهي تقابل المرحلة «الجمالية» عند كيركجرد. وهنا نجد تعبيرين مختلفين لشيء واحد. وبالنسبة لكليهما في حياتهما القصيرة المحمومة ـ باسكال ٣٩ سنة

وكيركجرد ٤٢ سنة - اصبحت نظرتهما للمسيحية سنة بعد أخرى أكثر زهدا وأكثر تعذيبا لهما واستشهادا. وكما هو معروف كان باسكال يتعذب في جسده وظل كيركجرد متمسكا بعذاب انغراق الايمان. «الرقص عند حافة الانغراق» ولقد حاول لبعض الوقت - وواضح انه لم يحرز نجاحا كبيرا - ان يحيا حياة زاهدة. ولقد وُجد كتاب باسكال «أفكار» في ترجمة المانية في مكتبة كيركجرد. والأرجح أن اقاربه اللصيقين كانوا مهتمين بالفيلسوف الفرنسي العظيم. وفي هذه النقطة لا تجب الاشارة الا الى واقعة صغيرة: فان اخا كيركجرد الذي يكبره بثماني سنوات اللاهوتي والاسقف فيما بعد ب.س. كيركجرد اطلق على ابنه الوحيد المولود عام ١٨٤٢ الأسماء التالية في العماد: باسكال ميشيل بول اجيد كيركجرد وهذا شيء شاذ للغاية وأمر يدعو للدهشة في التربة الداغماركية حيث ان اسم باسكال لا يرد في أي مكان آخر. ويأتي اسم ميشيل بعد اسم باسكال وهذا هو الأب ثم اسم بول ويحتمل أنه اسم صديق ب.ب كيركجرد الشاعر والفيلسوف الداغماركي الشهير بول مارتن موللر. وأخيرا أجيد وواضح انه يشير الى الدير الداغماركي في جرينلاند. غير ان اسم باسكال يأتي في الأول. وكان ب.س. كيركجرد قد امضى صيف عام ١٨٣٠ في باريس بهدف الدراسة. لكنه كان عليه ان يفسر سبب اقامته على انه يُعزى الى القلاقل السياسية.

ولكن حتى لو كان باسكال ملهما بعيدا لكيركجرد فانه ليس ملهما الا بالنسبة للاطار وهو اطار خارجي. وقد ملأ هذا الاطار كيركجرد بطريقته الأصلية في فنه الرومانسي العظيم، فكل شيء يصبح متماسكا ومتمشيا مع العصر الحديث. «فالأبيقوري» يستحيل برهافة شديدة الى «الجمالي»، على اساس إضفاء الطابع المثالي على الرومانتية المتأخرة والعصر البيروني والعصر الغاضب وعصر دون جوان. «والرواقي» يصبح محموما أكثر وأكثر استيطانا في «الاخلاقي» في البورجوازية المهذبة بمبادئها الأخلاقية، والتربية الصحيحة للروح والقلب، يصبح القاضي ولهلم. أما «الديني» فهو بكل سكاكين الجدل الحادة قد اصبح مرهفا واستحال الى «الديني الانغراقي». لقد اطيح بكل ايمان بسيط واصبحت الانغراقات في الجوار القريب وتُرك «المتفرّد» لنفسه كسابح في البحر وتحته ٧٠ الف فرسخ من الماء دون اية اعماق. واصبح الايمان اختيارا داعيا لليأس، اصبح قرارا، ارادة، موقفا مضادا لكل عقل. وسورين كيركجرد مثل نيتشه - بمعنى ما من المعاني - هو «كاتب التدهور» من الطراز الأول. والمصطلح يستخدم هنا بتحفظ شديد، وهو لا يلاحظ الانهيار في التدهور بل تنبه الى ما فيه من اشراق روحي غني للغاية. أو انه - بكلمات اخرى افضل - كما حدد نفسه: راقص مفرد لعظمة الألوهية.

وكيركجرد عبّر عن تلك المسألة عام ١٨٤٦ بتواضع شديد عن عمله. انه لا يريد (وهذه هي كلماته) ان يقدم اقتراحا جديدا وأن يطرح اكتشافا فريدا أو يكون حزبا جديدا، بل هو يريد ـ ولنفسه وحدها ـ ان يتابع الكتابات البدائية عن الظروف الفردية الانسانية للوجود، الظروف القديمة المألوفة المنحدرة عن الاسلاف بطريقة أكثر شخصية اذا امكن. وهذه الكلمات من اشد الكلمات تواضعا. ان تراث الأسلاف يستحيل عند كيركجرد الى شيء جديد في تصويره وتقييمه وتحليله العميق. وكل شيء يحاط بانفعال خاص من الباطنية الداخلية وكما لو كان مكسوا باشراقة فضية لروح لا تفشل اطلاقا. وهو يكتب بقوة واعية وعنف شديد في الخير والشر. او بتعبير آخر «في الأسى والمرح، في اليأس والتهور، في المعاناة وفي الابتهاج». وهو لا يعرف الا حدا واحدا: التماسك المنطقي والنفسي.

وقد نتساءل: بالرغم من الاختلافات العديدة هل هناك ملامح مشتركة عند الوجوديين في زماننا؟ والجواب يجب ان يكون بالايجاب.

أولا، ان الوجوديين جميعا يتفقون بشكل طبيعي بصدد المفهوم الذاتي والعاطفي والارادي للحقيقة وهذا جوهر المشكلة. وقد استمد هذا من كيركجرد تحت اسم المفهوم الوجودي

للحقيقة. وأحيانا ما يبدو هذا المفهوم للحقيقة على انه المفهوم الوحيد لا في فلسفة الحياة وحدها بل بكل بساطة ايضا في جميع المجالات. وتظل هذه النقطة غامضة للغاية.

ثانيا، ان الوجوديين الكبار مثل كيركجرد ينظرون نظرة كئيبة للحياة ،الانسان. وان تأكيد كيركجرد على القلق واليأس والسوداوية مسألة نمطية بل يجري تأكيدها بشدة. وكما هو الحال عند كيركجرد فان الانسان كما يرى الوجوديون الحديثون يعد غريبا في هذا العالم. ان كل شيء يمكن ان يتسبب في القلق والاضطراب. وعند سارتر نجد حتى غثيانا معينا بالنسبة للحياة ووظائفها. وكيركجرد فهمه على اية حال خلال سنواته الأخيرة. والانسان لا يستطيع بالمرة ان ينسى كلماته عن الجسم: هذه الكمادة الفاترة الموضوعة على النفس. ولدى ياسپرز نظرة اخف عن الانسان وامكانياته لكنه لا يظل يركز على تلك الملامح الكيركجردية على انها الشيء الجوهري.

ثالثا، الوجوديون البارزون مثل كيركجرد لا يؤمنون بالجبرية. وكان كيركجرد مقتنعاً بوجود ما يمكن ان يسمى على نحو شعبي (بالارادة الحرة) أو حرية الاختيار بتعبير أدق. وفي كل موقف للاختيار والانسان مواجه دائما بإمّا أو يكون لديه اختيار (حر). وقد اعتبر كيركجرد هذا امارة لنبالة الانسان. وقد اتخذ

الوجوديون المحدثون الموقف نفسه في تعارض شديد مع الجبرية السائدة في عصرنا. وبمعنى ما من المعاني هذا هو الأساس الأخلاقي وربما هو النقطة المحددة الوحيدة في الوجودية. والمسؤولية الباهظة ملقاة بثقلها على الانسان وعلى افعاله والتزاماته لان حرية اختياره مُفْترضة ومُتوقَّعة.

فهل يمكن للتفكير الوجودي ان يفضي الى شيء آخر؟ اجل، فمما لا شك فيه ان الجواب يجب ان يكون هكذا. ففي الحقيقة لا توجد حقيقة موضوعية في المجالات الوجودية ولا تتشكل الحقيقة الذاتية الا فيما هو عاطفي وإرادي. والوجودية تتخذ عند كيركجرد بصفة شخصية طابع الوجودية المسيحية. ويترتب على هذا الأخلاق المسيحية. ولقد كان يبعث ايضا وبشجاعة امكانيات الحياة الأخرى. ولكنه كان ـ لأسباب مختلفة ـ متشبثا بالمسيحية. «ان يصبح مسيحيا» كانت مشكلته الوجودية الخاصة. وبمعنى ما من المعاني يمكن للانسان ان يقول ان الجوهري في تفكيره هو الفهم والتقدير الوجوديان لكلمات المسيح الشهيرة: «انا الطريق والحقيقة والحياة» وهذه الكلمات الثلاث: الطريق والحقيقة والحياة هي مترادفات (وجودية).

تواريخ في حياة كيركجرد

١٨١٣ ولد في ٥ أيار (مايو) في كوبنهاجن

١٨٣٠ الالتحاق بالجامعة

١٨٣٤ وفاة الأم

١٨٣٥ الزلزال الأكبر

١٨٣٨ وفاة الأب

١٨٤٠ التخرج بتخصص في الإلهيّات

١٨٤٠-١٨٤١ الخطوبة

١٨٤١ رسالة الدكتوراه : (مفهوم التهكم)

١٨٤١-١٨٤٢ الدراسة في برلين

١٨٤٣ (إما أو) ، (الرُّجْعى)، (الخوف والرعشة)

١٨٤٤ (مفهوم القلق)، (شذرات فلسفية)

١٨٤٥ (مراحل على طريق الحياة)

١٨٤٦ (حاشية غير علمية)

١٨٤٩ (المرض حتى الموت)

١٨٥٠ (تدريب على المسيحية)

١٨٥٤ وفاة الأسقف مينستر

١٨٥٥ (الآن). الهجوم على الكنيسة القائمة.

١٨٥٥ الوفاة يوم ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) في كوبنهاجن

مؤلفات كيركجرد (ترجمت الى الانكليزية)

مذكرات مُغوي البنات
شذرات فلسفية أو شذرة من الفلسفة
طهّروا قلوبكم!
يوميات سورين كيركجرد
نقاء القلب هو إرادة شيء واحد
وجهة نظر. . .لعملي كمؤلف
مقالات مسيحية
من أجل اختيار النفس
العصر الراهن
مراحل في طريق الحياة
الخوف والرعشة
من أجل اختبار الذات،
احكم بنفسك!
خاتمة لحاشية غير علمية
الرُّجْعى
المرض حتى الموت
أفكار حول المواقف الحاسمة في الحياة الانسانية
التدريب في المسيحية
مقالات توضيحية
إما. . أو
مفهوم القلق
الهجوم على العالم المسيحي
أعمال الحب
مسيح المعاناة
حول السلطة والكشف

(للمؤلف)

(أ) باللغة الانكليزية
الزلزال الأكبر في حياة سورين كيركجرد
(ب) باللغة الفرنسية
ما هي الحقيقة في مؤلفات سورين كيركجرد
مدخل الى الترجمة الفرنسية لكتاب كيركجرد: إما . . . أو

المحتويات